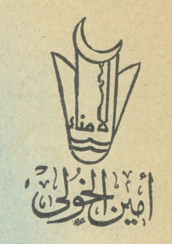




فى أموالهم

مثالية
لا
مذهبية


الأمناء
أمين الخولى


من هدى القرآن
فى أموالهم


مثالية
لا
مذهبية

الإهداء

الى

الذين يريدون ليحلّوا مشكلة المال

حلا تطمئن له القلوب بهدى القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

طلائع مبكرة

يوليـو ١٩٤٤

يرى بظهر الغيب ماوراء

يوليـو ١٩٦١

اذ يكتب للاذاعة ـ فى ١٣ يوليو١٩٤٤ ما نصه :

« .. فنكاد من كل أولئك نحسها شيوعا وعموما ، أو اشتراكا دينيا ، قد اشار اليه القرآن ، منكر الملكية الفردية .. ولكنك تذكر أيضا معه : ان هذا القرآن قد سماها كذلك ، أموالهم وقال لهم فى الخطاب أموالكم ، وذكر أنهم كسبوها ، وقال : وأنفقوا من طيبات ما كسبتم ، وقـــد نظم ملكهم لها ، ودبر له وشرع ، بل تسمعه قـــد طلبها منهم يقترضها لله . فتجدها ملكية خاصة قد أشار اليها القرآن كذلك ، وقررها .. فأنت بين هذين تساءل : ؟ .. ؟ ..

وتجد الاجابة عن هذا فى صفحات ٣٢ وما بعدها من هذا الكتاب ، فى فصل كتب فى يوليو ١٩٤٤ ، ومنعت الرقابة اذ ذاك اذاعته ، وهو قائم بين التواريخ المسجلة لهذه الفصول ، على ما سنبين بعد .

المطالبة بالتشريع
قبل يوليو ١٩٥٢ بخمسة أشهر

اذ اذيع ما نصه :

« .. وان وقع اليأس من أن يكون الناس هكذا فى تناول المال : يشربون منــه ، ولا يجمعونه فى القرب ليدوروا به ، فاذ ذاك نقــول : ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ، وحقا فى هدى القرآن أن يؤخذ الناس بالنظم التى تجعل فى المال تلك الحقوق المعلومة ، التى أساسها : ان المال فى خزانة الله ، وانهم ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، ويؤتون من مال الله الذى آتاهم .

ويأيها المتحدثون عن هدى الاسلام :

تريثوا قبل أن ترسلوا أقوالكم ، عن تدبير القرآن لمشكلة المال ، هديتم بهدى القرآن »

وقد كتب هذا الكلام وأذيع فى ١٩٥٢/٢/١٩ .. وتجده فى مكانه بين فصول هذا الكتاب ــ ص ١٠٠ ــ

•

- ٢ -

هذا الكتاب

« فصول هى أحاديث متتابعة ، فى موضوع واحد ، وكذلك كانت أحاديث « من هدى القرآن » ، موضوعات موحدة ، تدرس فى القرآن الحكيم ، ويلتمس فيها هديه على منهج فى التفسير ، لعل القارىء قد جاءه وصفه فى مناسبات جامعية ، وعامة (١) أقربها ما ورد فى مقدمة كتاب « من هدى القرآن : القادة .. الرسل » ص ٨ وما بعدها .

وجرت الدراسة القرآنية فى الجامعات عليه . وظهرت ، كتب قد يكون أجدها كتاب « التفسير البيانى » ، للدكتورة بنت الشاطىء .

وفى ثنايا فصول هذا الكتاب اشارات متعددة ، للمعالم الكبرى لهذا المنهج الادبى ، فى تفسير القرآن ، وأورد فى هذه المقدمة نصا منها هو أكبر دعامة يقوم عليها هذا التفسير الادبى ، وهو فى الوقت نفسه أهم نتيجة كشفت عنها مدارسة القرآن الكريم ، بما هو تدبير نفسى واجتماعى للحياة الانسانية ، وان هذا التدبير هو المجال الخاص للقرآن ، وهو السبيل المفردة لتحقيق أهداف الرسالة الاسلامية ، وتأثيرها على الحياة .

وذلك النص الذى أبرزه فى هذه المقدمة ، والذى يبرز فى أهداف التفسير ذلك البروز الجلى هو :

فكرة الواقع .. والمثال فى القرآن

وهو، فكرة تلتحق بكبريات الفكر وامهاتها فى فهم الثقافة الاسلامية ، وجملتها : ـ

ان فى هذا القرآن ما هو واقع بدائى ، من البيئة العربية البدوية الجاهلية ، ويظل يتكرر وجوده ، فيما بقى على الارض حتى الآن من بيئات فى مستوى تلك البيئة العربية ، التى حملت الرسالة ، وجدت فى أدائها الى الامم ، شرقا وغربا ، فى انحاء العالم القديم كله .. وتركتها فى حياة تلك الامم رسالة بقاء وخلود ، يساير الزمن ويفى بحاجات التقدم .

---

(١) من ذلك مافى دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ مادة تفسير ـ وكتاب « مناهج تجديد » للمؤلف ، ص ٢٧١ وما بعدها ـ وقصة التفسير للاستاذ الشرباصى ـ ص ١٦٦ وما بعدها .

وكانت هذه الواقعيات فى القرآن ضرورية لهـؤلاء القوم ، حسب حياتهم ليتدرجوا فى التقدم ، ولا يفجئوا بما لاتناله عقولهم ، فلا يتلقون هذه الدعوة الاسلامية ، بله حملهم لها الى سائر الدنيا ، وابلاغها فى حرص ويقين ..

لكن مع هذه الواقعية ، التى قد تكون ما تكون ، فى درجتها الاجتماعية ، تجد فى القرآن وفى الآيات ذات الواقعية او فى آيات أخرى ، غير قريبة منها ، ما هو مثال عالى الافق ، سامى الغاية ، ذاهب فى الرقى والتقدم الى اقصى ما تستطيع الانسانية أن تبلغه برقيها ، وتصل اليه فى تقدمها .. فيفهم منها كل جيل ما يفهم .. ويحقق منها ما يستطيع .

وفكرة الواقعية .. والمثالية فى القرآن جديرة بالكتاب المفرد يؤصلها ويتتبعها فى ميادين التناول الاسلامى جميعا ، من قانون ، على اختـلاف أنواعه ، ومن خلق ، على تنوع صوره — ولعل الله يفسح فى الأجل حتى يجمع هذا الكتاب الذى تفرقت امثلة منه فى المجالات المختلفـة لدرس التفسير الادبى للقرآن أو للحديث من هديه .

وفى فصول هذا الكتاب اشارة الى الواقع .. والمثال فى تدبير القرآن لمشكلة المال ، تقرأ منها فى صفحة ٣٣ ملعبارته :

« وهو — القرآن — كدأبه ، الذى انستناه منه ، يجمع بين الواقعية والمثالية فى ذلك التدبير ، جمعا لبقا ، مرنا ، مسايرا للحياة ، مهيئا للانسانية أسمى ما تستطيع التطلع اليه من الآفاق .

فهو حين يحمى الملكية الفردية واقعى : لا يفجأ الناس بتجريدهم من اموالهم ، تجريدا يفتر همتهم ، ويثنى عزائمهم ، ويقعدهم فلا يبتكرون ولا يجددون ، ولا يذودون عن حماهم .

ثم هو حين يهز أسس هذه الملكية الخاصة ، كما رأيناه ، يكون مثاليا : يكفكف من غلواء الاغنياء ، ويزلزل صلتهم بأموالهم ، ويجعلها للنـاس جميعا ، وأصحابها عليها أمناء مستخلفون ، وهو مال الله ، لامالهم .

وبهذا التعديل الدينى الاساس ، السماوى الصبغة ، الالهى الروح ، يوقيهم اخطار الجموح ، فى التملك ، والوصول اليه بأى وسيلة ، واهدار الخلق ، والفضيلة ، والاسراف فى التمتع ، ونسيان حق الجماعة ، اى حق الله ، الذى هو صاحب المال .

ثم يمضى الناس ، فى طريقهم ، يتقـدمون ، ويتعلمون ، ويرقون ، ويتطلعون الى المثل السامية ، فتهيىء لهم مثالية القرآن من ذلك ما لوصار

عموما محضا واشتراكا كاملا ، ونسيانا للذات تاما ، لما رأى فيه القرآن باسا ، ولا حال هديه دونه .

فليهذبوا غريزة التملك ما استطاعوا ، وليعدلوا بينهم ما تساموا فتلك مرامى القرآن ، وتوجيه هديه)) .

* * *

وفصول هــذا الكتاب أحاديث اذاعة ، تباعدت سنوها من ســنة ١٩٤٤ م الى سنة ١٩٥٢ م اى نحو ثمانى سنوات ، اتحــدت فيها الفكرة وثبتت الخطة ، واتصل التنبه ، لم يقطعه الانقطاع عن الاذاعــة سنين ، ولم تصرف عنه صوارف مناسبات اقتضت الاذاعة فى موضوعات ذات اهمية متجددة .

وبهذه الظروف لتلك الاحاديث غدت مسجلة التاريخ ، موثقــة الاصول فيما قد تحفظه ملفات الاذاعة ، وفيما عندى من صورها ، التى اخرجتها عنها ، لم يمسسها تغيير ولا تبديل ، الا شيء من وصل النص بعبارة أو بعض عبارة ، يكون قد محل لونها فى الصورة المكتوبة بالكوبيا . أو لم تدق وقتها ، أو قد غيرها مر الليالى والايام .

واحتفظت هذه الفصول من خصائص الحديث بشيء أو أشياء فى عبارتها ، مثل :

معاودة التلخيص لما سبق ربطا للموضوع ، وتثبيتا للمعنى .

ومثل التوسع فى التعبير لئلا يفجأ الايجاز من يصغى الى الحديث ، فيضيع عليه شيئا من المعنى ، يفلته ، تعبير لم يلاحقه .. وفرق ما بين السامع المصغى فى دقائق ، وما بين القارىء الناظر المتحكم فى وقتهوظروفه المستطيع التثبت والمعاودة ، كيفما شــاء ، فرق يقضى بتمييز أسلوب الحديث ، بين أساليب الاقلام ، بمثل ما يراه القارىء فى كتب هدى القرآن واضح التمايز ، عن أسلوب كتب أخرى ، لكاتبه نفسه .

وبعض هذا الاسهاب قــد يهون على بعض القارئين تمثل الفكرة القرآنية ، التى يدق فيها الايحاء دائما ، وتسمو المرامى ، فيسعف عليها ما فى القول هنا من بعض الاعادة للافادة ، أو التلخيص للتركيز ، أو السعة فى العبارة ليتابعها المستمع .

وما حذفت منه شيئا الا هتافات بالمستمعين تحية ولفتــا ، لم أر ضرورة لتوجيهها الى القارىء المستجمع النشاط .

وباخراج هذه الفصول ، كما كتبت فى تواريخها المسجلة فى عقب كل

حديث يجد القارىء سجلا للتطور الفكرى ، اجتماعيا ، وأدبيا .. وهو تطور ينفع بتتبعه المصلح الاجتماعى والثائر الرزين ، اذ يجد فى خفقات القلوب ، وصرير الاقلام ما يعلن مدى استعداد البيئة ، لما يريد ليلقاها به من تغيير ، وتعديل وتقويم ، وانه ليجد كذلك فى هذه الارهاصات السابقة أصولا وأسسا يقيم عليها تغييرا تتلقاه القلوب باطمئنان ، والانفس بارتياح ولا يتسع معه المجال لشىء من تشويه ، أو سعاية ، بين الثائر وقومه .. فتمضى محاولته سريعة الخطو ، مستقرة القدم ، قليلة الخسائر ، أو خالية منها تماما ، قصيرة الزمن ، معوضة عما قد يكون وقع من تخلف .. ولما لهذا الاساس القلبى والنفسى فى الاصلاح من أهمية وخطر ، يكون هدى القرآن فى أموالهم ، من الجلالة والعظم بحيث يجب أن يتمثل القارىء طابعه ، قبل المضى فى قراءته ، ليجيئه على وعى وبصيرة .

وطابع هذا الهدى تمثله الكلمات البارزات على غلاف الكتاب . وهى :

مثالية . . لا . . مذهبية

وأشعر من أجل أهميتها ان لابد من التحدث الى القارىء بشىء عنها

- ٣ -

مثالية لا مذهبية

والمثالية التى تقابل الواقعية قد مضى القول فيها ، وبها يفتح باب الخلود والبقاء الابدى للدعوة الاسلامية ، اذ تستطيع مع هذه المثالية ان تساير التطور ، وتجارى التقدم ، وتتلقى كل جديد صحيح مدروس ، لا تبرم به ، ولا تعارضه بفهم سابق ، يمثل مرحلة من مراحل الماضى غادرتها الدنيا ، وتقدمت عنها الحياة ، وتلك هى المثالية المقابلة ، للواقعية

اما مايراد من المثالية هنا ، مع وجود أصله فى المعنى الاول فهو مقابلة المثالية للمذهبية ، وهى ما عنتها بعض فصول هذا الكتاب حين قالت :

« .. ايدخل — القرآن — بذلك فى مشكلات اقتصادية ، ومذهبيات اجتماعية ، يزيد بها الآراء رأيا ، والمذاهب مذهبا ، ويدعنا فى حيرةلانعرف الاصوب والاصلح ؟ ؟

أيدفعنا بقوة الاعتقاد الى تعصب لمذهب بين المذاهب الاجتماعية نفيض عليه من قدسية التدين ، وحرمة الاعتقاد ، ما يزيد به التعصب له ويؤكد قوته ، فى صراع المبادىء ، وتطاحن الاحزاب ؟

لعل الاجابة عن هذه الاسئلة قبل البحث عن هدى القرآن فى الاموال أجدى وأهدى ، وفى فهم المسلك القرآنى ، فى رياضة الحياة ما يخفف الحدة المخوفة ، فيما بين الدين والعلم ، وما بين الدين والعمل » — ص ٧ —

وقد فصلت الاجابة عن هذه الاسئلة وما يشبهها ، فى الموضع السابق نقله ، وفى مواضع أخرى كالذى فى ص ٤١ وغيرها من هذا الكتاب .

* * *

واريد ان أزيد على ذلك فاضع امام القارىء هنا ، قبل قراءة ما كتب

عن هدى القرآن فى أموالهم قضايا عامة ، عن المنهج الاسلامى الكلى فى ممارسة الشـــئون الدينية والدنيوية جميعا ، واعنى بالمنهج الاســلامى المنهج القرآنى ، الذى هو اساس كل أصل ودعامة للاسلام ، قبل أى شىء سواه ، وعليه يعرض ماعداه ، واليه مرد كل ما بعده .

واهم مبادىء هــذا المنهج انه :

انما يتناول الكليات والمبادىء ، لا الجزئيات والفروع .. وحسبك انه يلتزم ذلك فى اركان الدين نفسه ، من العبادات ، وفى اشهر هذه الاركان ، واكثرها ممارسة كالصلاة ، فانه لم يجىء فيها بتفصيل ما ، ولا جزئية ما ، وكذلك الامر فى الصوم والزكاة والحج ، فهل تراه ، وهذه خطته ، يعرض فى أموالهم وتدبيرها لشىء جزئى أو تفصيلى يسعنا معه ان نعد هذا الاسلام بقرآنه ، وبما يساق معه بيانا لهذا القرآن ، ملتزما مذهب كذا ، أو معدودا من حزب كيت ، أو جماعة بعينها ، أو شيعة بذاتها ؟ .. لا .. لم يكن من ذلك أو مثله شىء .

وما احسب الا ان القول باشتراكية الاسلام اليوم ، أو برأسماليته امس ، أو بشيوعيته غدا لا يفترق عن القول بان الاسلام ، فى أى وقت ، كان هو مذهب كذا فى العقائد ، أو هو مذهب كذا فى العبادات أو المعاملات .. لان الاسلام بقرآنه أسمى مرمى ، وابعد هدفا .. واعمق تناولا واخلد بقاء من كل اولئك .

ومن أجل هذا المسلك فى تناول القرآن والاتجاه الملحوظ فى منهـج القرآن ، لا أقول بمذهبية اجتماعية فى القرآن ابدا ، ولا فكرت يوما ما خلال هذه السنوات البضعة عشر ، التى اتصلت فيها بجو هذه الاحاديث من هدى القرآن فى أموالهم .. مافكرت حتى فى ان أهمس أو اخافت بشىء من هذه المذهبية فاذكر اشتراكية أو غيرها ، من مكروه المـــذاهب أو محبوبها ، فى تلك السنين الطوال .

بل لقد جاهرت بغير هذا المنزع فى اجتماعات وندوات ارادونى فيها على الكلام عن اشتراكية الاسلام ، أو نحوها من الالتزام ، فكان ان رفضت القول بهذه المشابهة ، والتزمت القول بمثالية الاسلام التى تهيئه للخلود وتصلحه للبقاء السرمدى ، يتسع لكل محاولة انسانية علمية تجريبية ، تثبت صلاحيتها ، وترتضيها الانسانية الراقية لنفسها .

وكان من أثر هذا المسلك ما كتبته فى نقد اشتراكية الاسلام ، حين سار بها كتاب ، يجد القارىء نقده الجاد فى القسم الثانى من هذا الكتاب وهو الذى عنوانه « لامذهبية » . وبهذا النقد بعد ما ورد فى ثنايا القسم الأول اكتفيت فى بيانى للامذهبية فى الاسلام .

وهكذا يخرج هذا الكتاب فى قسمين :

مثالية : تحدث بهـذا المنهج الفنى فى فهم الاعجاز القـرآنى **فهمـا منضبطا محدودا ، مرتهنا بالدلالة اللغوية الواضحة فى تطور معانى الكلم العربية ، ثم بالايحاء الفنى للفظ الذى تحددت دلالته الاولى فحددت معانيه** الثانية ، وبما قرر السياق القرآنى من أصـل المعانى ، فأثبت كل ذلك للاسلام فى تدبير الاموال **مثالية** أوسع افقا ، وافســح فهما ، واسمى انسـانية ، من كل ما عرفت هذه البشرية ، من حقوق افرادها ، وكرامـة ابنائها .. ولتمض من ذلك الى ابعد ما وصلت اليه اليوم فستظل هذه المثالية القرآنية متقبلة لتساميها محتملة اياه .

ثم ((**لا مذهبية**)) وهى القسم الثانى الـذى اسس له القسم الاول فجاء انكار المذهبية فى عمل من سموا اشتراكية الاسلام شاهدا ودليـلا على ان محاولة التطبيق المذهبى او الاسمى تنتهى الى مثل ما انتهت اليه اشتراكية الاسلام ، فى الكتاب المعنون بها من مستوى **فكرى يترفع** عنه الاسلام **ومحاولة** تلفيقية يجل عنها الاسلام . **وتكلفات** مفتصبة يأبى ان يشد اليها الاسلام .. على حين هو يقدم من الشعور الانسانى والاصل الاجتماعى ما يدع للانسانية حرية الفكر .. وحرية الممارسة .. وحرية التجربة .. وحرية التشريع : لتحقيق هذه الاهداف الكريمة .

* * *

وكذلك انظر الساعة الى مادار حديثا فى الصحف اليومية ، من قول صحيح أو فاسد ، عن اشتراكيتنا هذه التى كثر ترديد لفظها وشاع .. انظر الى هذا وما قيل قبله ، وما قد يقال بعده نظرة زاهدة كل الزهد فى الاصغاء له والاشتغال بقليل أو كثير منه ، لانى مطمئن الى أن هذا الهدى القرآنى يقدم المثالية غير المذهبية ، والمثالية القابلة للواقعية ، فى غير مدى من التقدم محدود .. معترفا بكل جهد عملى او علمى للبشرية فى هذا السبيل ، مطمئنا الى أن الاسلام بأصوله الواضــحة ، الصريحة ، الكافية الشاملة يمنح هذه الاشتراكية قبولا واعترافا .

لكل اولئك أشعر ان هذا الكتاب المتواضع يقرأ فى اى بلد اسلامى .. ويصلح لاى عصر اسلامى .. دون ان يلم بشىء من مذهبية .

مصر الجديدة فى ٢٩ مارس سنة ١٩٦٣

أمين الخولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الذِي آتَاكُمْ ـ النور ٣٣

اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ ـ الشورى ١٩

اللهُ يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ـ العنكبوت ٦٢

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ـ الحديد ٧

لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ـ آل عمران ٩٢

وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ ـ فاطر ١٨

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ـ البقرة ٢٥٤

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ـ الإسراء ٧

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ـ الأحقاف ١٩

وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللهَ ذو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِين ـ البقرة ٢٥١

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ـ الزخرف ٣٢

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ـ البقرة ٢٦٨

* * *

لمحات عامة

إلى هدى القرآن نستلهمه ، وإلى إيحاء فنه السماوى ، وبيانه المعجز نستهديه . — وقد سلف [1] من هذا ما تكشف به أن حياة المؤمن فيما يهدى إليه القرآن ، من التى هى أقوم : إنما هى نضال وعمل ؛ وهو ما تمثله حياة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وهو حامل لواء هذا الحق ، ولسانه الناطق . . وقد أكمل القرآن هذا التدبير الحكيم ، بأن الحياة الصالحة نضال وإعطاء ، فيما بينه من الأمر بالقرض الحسن ؛ والحث عليه بأساليب ووسائل قرآنية عملية .

ونريد الآن لنمضى فى تلك السبيل ، التى يسرها القرآن لأهله ، وعبدها أمامهم ، ليبلغوا فيها ما هم قادرون عليه ، صالحون له ، من تقويم الحياة الدنيا ، والاحتياط للأخرى ؛ بأداء واجبهم من النضال العامل والإعطاء .. وكيف يكون ذلك توجيهاً ، يدبر لخير الناس وإسعادهم .

نريد لنتذكر ما يشف به الحس القرآنى الكريم ، فى ذكر القرض الحسن ، إذ يسمى هذا الإعطاء والنضال فى سبيل الخير العام ، قرضاً حسناً ، وقرضاً لله تعالى ؛ فلا يسميه منحا ولا تفضلا ، أو ما يشبه هذا .

---

(1) كانت أحاديث « من هدى القرآن » موضوعات متصلة ، يتلو بعضها بعضا ، وقبل الحديث « من هدى القرآن فى أموالهم » كان الحديث عن « قرض حسن » واليه الاشارة هنا ، مع الاشارة الى الاصل القرآنى العام فى ممارسة الحياة .

وقد رأينا اللغة العربية تبدأ معنى مادة — ق ر ض — من القطع . . ثم تنتقل منه إلى مطلق العمل . . ثم تخصه بما يجازى عليه ، فنقول : أقرضه قطع له قطعة يجازى عليها . . والقرض ما يعطيه الإنسان ، أو يفعله ليجازى عليه ؛ فتفهم اللغة من القطع ، والفعل ، والإعطاء معنى المجاوزة والترك ، وإذا ما استعملت اللغة القرض فى إعطاء المال أحست الفرق بينه وبين المداينة والدين ؛ فجعلت الدين ما له أجل . . والقرض ما لا أجل له[1] . . وكأنما شعرت اللغة بمعنى المعاوضة والمبادلة فى الدين ، ولم تتمثل ذلك فى معنى القرض ، بل شعرت فيه بمعنى خير . . إذ جعلت القرض حقيقة فى كل مايفعل ليجازى عليه[2] . وقالت العرب لكل من فعل لها خيراً : قد أحسنت قرضى ، وقد أقرضتنى قرضا حسنا . .

هكذا أحست اللغة بمعنى القرض ، وفرقت بينه وبين الدين ، ووجدت فيه معنوية خيرة خاصة — ثم كان للوجدان القرآنى ، فى استعماله أثر أخص وأقوى ، بجعله قرضاً لله ؛ وبغير ذلك ، مما لا نتعرض لشرحه هنا ، ونكتفى بالإشارة إليه .

* * *

ونمهد بتلك الإشارة لما تعرض له هنا من بيان نظرة القرآن إلى هذا المال فى أيدى الواجدين ، وصفته التى يعطونها به للفاقدين ، وأنهم إنما يعطونه حين يقرضونه إعطاء التارك المتجاوز ، غير المحدد لأجل الرد لا الدائن بما يقرض .

وهذا إنما هو تأسيس وتأصيل لشعور واجدى هذا المال ، بعدم الأثرة فى هذا الثراء ، والتفرد بهذا الغنى والحق المباشر فى تلك الأموال ، وهى

(١) القاموس ، واللسان — مادة ق . ض .

(٢) تفسير النيسابورى — هامش الطبرى — ج ٢ ص ٣٩٢

الفكرة التى يعمل الهدى القرآنى لتكوينها وترسيخها فى نفوس أصحاب المال ، من أهله على ما سنرى ذلك جليا قويا ، فيما بعد

***

ولفهم رياضة القرآن للنفس البشرية نقدر أن هذا الإنسان يحيى فى الدنيا ، وفى كيانه دوافع قوية تدفعه إلى إحراز الأشياء واقتنائها ، وادخار المواد وحفظها ، وتملك الثابت والمنقول منها واستخلاصه لنفسه ، يشب على ذلك بطبعه ، منذ الطفولة المبكرة ، ويستمر حرصه عليه وينمو ، حتى الشيخوخة المتأخرة ، ما يفتر فيه ذلك أثناء حياته ، بل يتجدد له فيها ما يستهويه ، فى مختلف أدوارها ، فهو متجدد الرغبة فى إقتناء الطريف النادر حينا ، وإحراز الجديد المستحدث حينا . على تنوع رغباته ، وتعدد هواياته ، وغلبة شهواته وإلحاح حاجاته . . وهو فى كل ذلك إنما يرضى تلك الدوافع القوية التى تحثه على الاقتناء والامتلاك ، على صورة من الصور ، وفى وضع من الأوضاع .

وهذه الدوافع فى البشر هى التى يعدها القدماء لونا من الإلهام فى فطرتهم ، أو يسميه المحدثون غريزة فى جبلتهم ، أو يدعونه بغير ذلك من الأسماء ، كما يتفاوت تنسيقهم لهذه الدوافع وتقسيمها . . فيعدون منها : الادخار والاقتناء ، ثم يعدون التملك ، أو يجعلونها جميعاً قوة واحدة ، على ما يهديهم إليه تقدمهم فى دراسة خفايا النفس الإنسانية .

هذه الرغبة فى الإنسان على اختلاف شئونه وتغير ظروفه ، سواء فى الأولى ، أيام حياة الغابة ، أو فى خطواته الحضارية ، على تمادى الأزمنة : نصف متحضر ، أو متقدماً فى الحضارة ، بعيد الأمل فى التمدين . . يطلقها فى أول حاله ، أو ينظمها بالأديان والشرائع والأخلاق ، فى مختلف أعصره ، هى رغبة التملك . . التى تبدو فى فجر الحياة ، ملكا شائعاعاما ، ثم ملكا تنظم

أسبابه ، وانتقالاته ، وتحدد فيه الحقوق والواجبات ، والمشروع منه ، وغير المشروع ، والإنسان فى كل حين هو الإنسان ، يرضى تلك الرغبة بمختلف الوسائل والأساليب ، يقنع الخيرون منه بما حل . ويطمع الأشرار منه فى المحرم ، بما تدفعهم إليه الشهوة المسيطرة والرغبة المحتكمة ؛ سواء فى ذلك الأفراد الآحاد ، والجماعات من أمم وهيئات.

وقد كان لرغبة التملك هذه أثرها الحسن فى الحياة البشرية ، فردية واجتماعية بما بعثت من نشاط ، وأثارت من همم ، وأذكت من منافسة . أسعفت الفرد والمجتمع بنتائج جليلة ، فى الأعمال ، والعلوم ، والفنون . خطت بالمدنية خطوات تقدمية . . لكن كان لتلك الرغبة فى التملك ، حين تلح وتجشع أثر سيء ، بل آثار قبيحة ، بفعل الظروف المختلفة ؛ من طبيعية فطرية فرقت بين الناس ، أو ظروف وضعية مصنوعة ، هيأت لبعضهم من فرص التملك وأسبابه مالم تهيئه لآخرين غيرهم ؛ فأصاب هؤلاء ، وخاب أولئك ، واغتنى هؤلاء وافتقر أولئك ، فكانت رغبة التملك فى الأولين جداً ماضيا ، كما كانت تلك الرغبة فى الآخرين حسرة موجعة ، زادت إفساد العلاقة بين الفريقين . بل نفثت العداوة والبغضاء فيهما ، وأحالت التعاون بينهما ، فشقوا بذلك جميعا ، وشقى المجتمع المؤلف منهما ، بما دفعتهم إليه تلك الرغبة فى التملك ، من شرور ومآثم ، من الغصب والسطو والسرقة والنهب ، وأشباهها ، من التحايل تارة ، والقهر أخرى ، وكان ما كان فى الحياة ، من جرائم ، وآثام ، وآفات ، وفوضى أقضت مضاجع الأفراد والأمم ، فكانت بين الأولين صراعاً مختلف المدى والضرر ، كما كانت بين الأمم حروباً مدمرة مشقية ، عانت منها الدنيا ، ولا تزال حتى الساعة تعانى المبيد المهلك .

ومع هذه الحال لاعجب أن تكون العناصر الخيرة ، فى هذه البشرية قد عنيت منذ قديم الدهر بهذه المشكلة وراحت تلتمس علاجها ، أو تحاول أن

تجد — على الأقل — مايخفف من بلواها ، ويهون من وقعها ، ويقلل من شرها ، فكانت المشكلة موضع بحث المصلحين ، من مليين متدينين ، أو فلاسفة متحررين ، ورصدوا لها جميعا مايملكون من وسائل وحلول فحينا تدين مهذب مروض ، وآنا تفلسف دارس مدبر ، يعينه البحث الاجتماعي ويمده الدرس الاقتصادى ، وتسند الكل تجربة وملاحظة فى نية صادقة ، وأمل طامح قديما وحديثاً ؛ ومع كل ذلك لما تصل الدنيا إلى مايقيهامن تلك الخسائر ، ويحميها من تلك الآفات ، فتارة يعوز العامل المعنوى والروحى فى التدبير المادى العملى ؛ وطورا يعوز التدبير الاقتصادى تأييد نفسى اعتقادى ؛ فلا يكفى واحد منهما لتحقيق غاية ، أولا يتحقق بينهما تعاون ينتهى إلى نتيجة ؛ وتظل المشكلة قائمة ، ترجو الحل الذى يعطى التجربة مجالها ، ويترك لها الحرية فى ميدانها ، مع إحسان الاستفادة بالدافع الوجدانى والشعور الانسانى ، الانتفاع الجرىء الحر ، والمجرب ذا القلب والعاطفة .

فكيف يكون القول من هدى القرآن فى حل تلك المشكلة الكبرى ؟ أتراه يعرض لما عرفت الانسانية من ذلك : من الدين ، أو الفلسفة ، أو العلم ؟ ويقدم من ذلك تخطيطاً تفصيليا ، لتدبير مشكلات المال والاقتناء ، والمنافسة ، والمنازعة ؟

أيدخل بذلك فى مشكلات اقتصادية ، ومذهبيات اجتماعية ، يزيد بها الآراء رأيا ، والمذاهب مذهبـــا ، ويدعنا فى حيرة لا نعرف الأصوب والأصلح؟ ويدفعنا بقوة الاعتقاد إلى تعصب لمذهب بين المذاهب الاجتماعية ، نفيض عليه من قدسية التدين ، وحرمة الاعتقاد ما نزيد به التعصب له ، ونؤكد قوته فى صراع المبادىء وتطاحن الأحزاب ؟ لعل الاجابة عن هذه الأسئلة قبل البحث عن هدى القرآن فى الأموال أجدى وأهدى . . وفى فهم المسلك القرآنى فى رياضة الحياة مايخفف الحدة المخوفة فيما بين الدين والعلم ، والدين والعمل ، تلك الحدة ، التى أججتها أسباب اجتماعية تاريخية ، تركت هوة واسعة بين السلطتين الزمنية والروحية ،

وكبدت الإنسانية من الخسائر بهذا السبب الكثير المروع ، وحسبك من هذه الخسائر ماتكبده العلم حين حجر الدين عليه ، وعلى نشاط العقل فيه .. وماتكبدته ، وتتكبده الحياة ، من الخسائر حين حرمت الشعور الإنسانى والمعنى الروحى ، الذى يربط على قلوبها ، ويؤكد التعاون المتضامن بين أفرادها .

* * *

فى تبين المسلك القرآنى فى توجيه الحياة العملية نرى أول مانرى ، أن هذا القرآن يحرص أول مايحرص ، على أن يترك للعقل حريته كلها ، فى مواجهة مشكلات الحياة وواقعاتها .. وذلك بأنه يترك للمصلحة الواقعية الكلمة كلها ويدع للتجربة الفرصة كلها . . وأساس ذلك كله أنه لا يقدم تفصيلا جزئياً لمشكلة من المشكلات ، كمشكلة التملك أو غيرها . على حين لا يرفض من قول التجربة الصادقة ، وماتقضى به المصلحة الحقة رأياً ، بل يتلقى ذلك كله ، فى رحابة صدر ، تقدر التطور ، وتقدر مايجد للناس ، من شئون تتغير على الأيام وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلا يحدها تفكير عصر معين ، ولا يوقفها تحديد عقل بذاته ، فى مستوى محدود ، ولا يعوقها ألا يكون السابقون ممن فسروا الدين ، أو مارسوا التشريع لم يشعروا بها ، ولم تحتج إليها حياتهم فى عصرهم . . لأن ذلك كله من عمل الناس لا يحتكم فى الأصل الأول والأساس الأكبر ، من هدى القرآن ، الذى اجتنب هذه الجزئيات المتغيرة ومس تلك الكليات الواسعة الشاملة ؛ فالذى يمكن أن يعرض هنا من هدى القرآن فى أموالهم . إنما هو النظر ، فى الأسس البعيدة ، والأصول الأولى من حيث ارتباطها بالفطرة البشرية . . والقرآن فى الكلام عن هذه الفطرة على مارأينا — وسنرى — نفسانى دقيق يمس هذه الفطرة مساسا خبيرا رشيداً . . ويحسن كل الاحسان فى أن يجعل التدين ، والتأليه ، والمسئوليه الآخرة عوامل فعالة ، فى إحياء الضمير ، وتقوية الاحساس بالخير والكرامة وتأسيس الشعور بالمسئولية على المراقبة الداخلية ، والرضا النفسى ، وعلى

هذا الأساس يتقدم البشر للاختبار العملي والعلمي ، الذى يدع القرآن بابه مفتوحا فسيحاً ، ومداه طلقاغير محدود ، ليس فيه شيء من المناطق الممنوعة أو المجالات الموصدة .

ويعرض مع هذا الصنيع إلى الأهداف العليا ، والغايات الكبرى لهذه الحياة الانسانية ، يدفع البشرية منها إلى أكرم ماتجود به طاقتها ، ويحلق إليه طموحها ، لايقفها من ذلك عند حد ، ولايلزمها أفقا دون آخر ، بل يغريها بأفضل المثل ، وأسعد الغايات ، لتنال من ذلك ماتسعفها عليه قدرتها ، فى كل عصر وبيئة .

ولو أجملت خطة الهدى القرآنى ، فى مشكلة المال ، وغيرها من مشكلات الحياة لاستطعت أن تردها إلى معنيين هما :

(ا) تجربة دقيقة دائبة للحياة ، لمعرفة واقعها ، بعقل طليق ، ودرس دقيق ، مستفيد من كل مايعرف فى الدنيا .

(ب) شعور إنسانى عميق رقيق ، يثيره وجدان متدين حساس ، يجد ماتحسه البشرية فى أقصى أرجاء الكون .

* * *

هذا هو ما انتهى إليه الفهم الفنى النفسى للقرآن ، من منهجه فى تناول مشكلات الحياة الاجتماعية كلها — وهو ما أرجو أن يبدو لنا ، فيما يلى ، من حديث عن الأموال ، واضحاً جلياً ، يلتقى فيه جهد العقل المجرب ، مع شعور التدين المتسامى ، فى طموح إلى المثالية التى يرفع منارها للبشرية هدى القرآن .

١٩٤٤/٥/٢٦

حب المال

اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ .

فى سبيل تصوير الفكرة الكاملة للقرآن ، فى أموالهم وصفنا دوافع التملك ، وما لها فى حياة هذا الإنسان من آثار حسنة ، وأخرى سيئة . . وبين يدى القول عن رياضة القرآن لهذه الغريزة تبينا اللمحات العامة للخطة القرآنية ، فى تدبير شئون الحياة ، بمسايرة الواقع ، لينتفع بكل ما يستفيد الإنسان من جديد المعرفة والخبرة ، بعقل محرر من كل وهم ، مع النهوض بالبشرية إلى أقصى ما تستطيعه من سمو ورقى ، يحدوها إليه يقين الاعتقاد المستنير ، الخير ، الشاعر بآمال الإنسانية ، الواجد لآلامها .

وفى الذى مضى من هذه اللمحات عن الخطة القرآنية ، من النظر إلى الأسس البعيدة ، والأصول الأولى ، دون تقيد بالجزئيات الصغرى ، والمفردات المفصلة ، من نظم الحياة ، حماية لبعد النظر ، ورحابة الأفق ، واستعدادا للتطور الزمنى ، والاختلاف المكانى ، بين البيئات المتغايرة .

ويظلل هذا كله خبرة نفسية كبرى ، ساغ من أجلها أن يقال اليوم : إن وجه إعجاز هذا القرآن إنما هو شىء نفسى [1] ، يزيده بياناً وقوة ، تقدم الدراسة النفسية ، وكشفها عن خبايا ذلك الكيان الإنسانى .

---

(١) راجع « البلاغة وعلم النفس » لصاحب هذه الفصول ص ١٩٩ وما بعدها ، من كتاب « مناهج تجديد ، فى النحو والبلاغة ، والتفسير ، والادب » .

وعلى أضواء تلك الخطة القرآنية نحاول رسم الفكرة القرآنية الكاملة عن الأموال ، والملكية ، وهل تلافى بها القرآن ما لاقت الإنسانية وتلاقى بسبب هذه المشكلة الاجتماعية القديمة الحديثة ؟

وهل يقدم الهدى القرآنى من ذلك ما يرتفع به على الخلاف بين الأحزاب ،والصراع على المبادىء ، ويهدى إلى ماتطمئن له النفوس ، بفعل العقيدة ، وتأثير الإيمان ؟

وفى سبيل هذا ننظر إلى ما سبقت الإشارة إليه ، من رغبة التملك فى الإنسان ، وسيطرتها عليه تلك السيطرة التى تكررت الإشارة ، إلى حسن آثارها ، وقبح تلك الآثار أيضا . .

وسنرى أن القرآن لم يعمد من ذلك إلى تجاهل أو كبت يصادم الواقع . من قوة هذه الرغبة فى البشر ، فهو يقول :

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا

وفى فهم هذه الآية يقول المفسرون : إن وصف حب المال بالجم يدل على أن حب المال . وتعلق القلب بتحصيل ما يسد الخلة منه غير مكروه . بل مندوب إليه لبقاء نظام العالم . . ثم ما يلبثون أن يهزوا ذلك بما يتجهون إليه من تعقيب على ذلك بمثل قولهم ما معناه : كل السلامة وجل الفراغ فى الترك ، كما هو دأب المتوكلين ، وينشدون قول الشاعر :

إن السلامة من ليلى وجارتها ألا تمر على حال بواديها

وهكذا ينقل مثل هذا القول من المفسرين[1] . عن بقاء نظام العالم . ثم يعقبون عليه بما يهدم هذا النظام ، كما ترى فى هذه العبارة الأخيرة ، فهل هذه هى خطة القرآن عند الحديث « فى أموالهم » ؟

ندع الرأى فى هذا الآن ، إلى ما بعد الاحتكام إلى صنيع القرآن نفسه فى غير هذا الموضع ، بما يتحقق به إدراك الاتجاه القرآنى ، ودرجة

---

(١) النيسابورى — على هامش الطبرى ط بولاق — ح ٣٠ ص ٨٩ .

بعده أو قربه من مثـــل هذا القول من المفسرين ، أو غيرهم من الهيئات الإسلامية .

إنا لنقرأ من آياته ، فيما يتصل بهذا المجال مثل :

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ – البقرة : ١٧٧

وهذا القول عن الإيتاء على حب، فى الإبانة عن أفضل البر، يرى بعض المفسرين فيه أن الإيتاء على حب الله ، وإليه مرجع الضمير فى (حبه) . وصاحب هذا القول معجب به ، ويراه أحسن ما قيل فى الآية . . مع أنك تشعر أن المرجع بعيد ، وإنما يعود الضمير على أقرب مذكور، وهو فى الآية المال ، أما لفظ الجلالة فبعيد الموقع ، والمعنى غير متبادر ، ولا يقوى به الغرض كثيراً فى الاعتبار النفسى ، ثم ليس هو رأيهم الأخير فى الآية ؛ فمنهم من أرجع الضمير — كما هو المتبادر — إلى المال ، أى على حب المعطى المال . ولما أرادوا زيادة البيان لجأوا إلى الحديث وقالوا : إن ما فى الآية هنا كما فى الحديث ... «أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر . . » والأمر لا يحتاج إلى الاستظهار بالحديث والتنظير به ، وإنما الشأن أن يترك القرآن يفسر بعضه بعضا ، ويلتمس مثل هذا التعبير من الاعطاء على الحب من استعمال القرآن نفسه فى مثل قوله :

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا .

فالتعبير فى هذه الآية من وادى التعبير فى الآية الأخرى . يقدر فيه النوازع البشرية ، والرغبات النفسية ، ويريد مع هذا التقدير للفطرة كبح

جماحها ، ووقاية تطرفها ؛ بما يطلب من إيتاء المال .. والإيتاء فى اللغة هو : الإعطاء السهل اليسير ، الذى يفهم من معنى مادة أتى وآتى

ومن هنا يدرك المبصرون لأنفسهم : أن القرآن لا ينكر فى الناس هذه الفطرية ، ولا يقول مع هؤلاء الذين زعموا أن المتوكلين يبتغون السلامة من ليلى وجارتها ، بالترك والفراغ التام منها ومن جارتها . . فهى رياضة اللطيف الخبير بالنفس الإنسانية ، يقرر واقعها ، ويقدره ، ثم يروضها مع هذا على أن تؤتى المال ذوى القربى واليتامى والمساكين ، مع حبه الجم ، وأكله اللم . . ولو قد أنكر هذا من شأنها لما اطمأنت النفس إلى ما تسمعه من رياضتها .

ونمضى قدما فى تتبع حديث القرآن عن رغبة التملك وحب المال فإذا هو نفسانى صحيح ، ثم هو اجتماعى عملى واقعى . . يقول فى عد نعمه على الناس أفراداً وجماعات مثل قوله :

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ـ الإسراء : ٦

وقوله : « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » ـ نوح : ١٠ — ١٢

وهو الواقع فى حياة الأمم السالفة والخالفة : تكون الكرة والغلبة والدولة . بما تذكر الآية أنه أمدهم به من مال وبنين ، وجعلهم أكثر نفيرا . . سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

فالهدى القرآنى نفسانى ، دقيق ، حين يصف هذه النفوس التى يروضها ويدبرها ، لا يلقاها بما يخالف فطرتها ، ولذا تطمئن إلى ما تسمعه منه ،

ولا تشبيه فى توجيهه لها ، وتدبيره إياها ، لأنه يحدثها حديث الواقع ، الذى تعانيه وتجربه . وتجد صدقه ، فيما تجد من الغلبة والدولة ؛ فإذا ما حدثها أن خيرها فى الحد من هذا الحب ، أو البذل السهل لهذا المحبوب لم تحسبه يخالف بها عن المجرب الصادق .

وبهذا سنظل نجد له من هذا الحديث عن الفطرة البشرية مايزيد الأمر وضوحاً ؛ فهو يقول :

« المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا ، والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وَخَيْرٌ أملا » ـ الكهف : ٤٦

كما يقول :

زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والْخَيْلِ المسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ .ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيَا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمـَآبِ ـ ال عمران : ١٤

فأصحاب القرآن بهذا كله يدركون أن هذا الهدى الخالد قد عرف للبشرية حبها للتملك ، فأرضاها لوناً من الإرضاء ، يوفر ثقتها بما يوجهها إليه فى تعلية هذه الغريزة ، ولا تحس معه بشك فيما يلقى إليها ؛ لأنها قد عرفته مقدراً للواقع ، خبيراً به ، لطيفا فى تناوله . فلتصغ إلى ما سيلقى إليها من حديث عن هذه الرغبة فى التملك ، وما يحسن أن تكون عليه ، وما ينبغى أن تقف عنده ، لتتحقق لها الغلبة ، وتستقيم الدولة ، التى هى من نعمه التى امتن عليها بها .

١٩٤٤/٦/١

بين القصد والجور

« .. يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ »

بعد الذى بسطنا من القول فى تقدير حب الناس للمال ، وتقرير أنه الشأن فى الفطرة البشرية ، وإرضاء هذه الفطرة ، ببيان أن المال وسيلة الكثرة والدولة ، وسبب العزة والغلبة ، على ماسبق بيانه ؛ نقصد بعد ذلك إلى حديث من القرآن عن هذه الفطرة ، بما هى محتاجة فى الانسان إلى مراقبة وملاحظة لأنها حين تجنح إلى مالا خير فيه تكون وبالا على الفرد والأمة ، ومضيعة لما هى وسيلة اليه وسبب من العزة والغلبة ، والكثرة والدولة ، التى قلنا إن حديث القرآن عنها إرضاء لهذه النزعة فى حب المال ، وما يذكره بجانبه من حب الولد .

فهى إذن بحاجة ماسة إلى التوجيه السديد ، إلى الخير والرشد للفرد والجمع ؛ وعليهم أن يرقبوا أمرها ، ويحسنوا توجيهها ، يذودونها عن الشر إذا جنحت اليه ، ويعينونها على الخير إذا بدت رغبتها فيه .

وهذه المراقبة ليست يسيرة المئونة ، ولا سهلة الممارسة ؛ لأنها لا تحقق غايتها إلا إذا قامت على الخبرة اللبقة ، بالنفس وقواها ، وتخيرت الوسائل الناجعة الأثر ، غير ذات العواقب السيئة ، على الكيان النفسى ، والنشاط البشرى ، فى ممارسة الحياة

* * *

وأصحاب الدرس النفسى القديم والحديث يقولون فى تهذيب الغرائز .. ويسمونه تعلية لها ، وسموا الغريزة المهذبة « غريزة معلاة » ؛ ولهم فى ذلك

ما يفيد ويرشد ، ولكن ليس بنا أن نلم بشيء من جهدهم فى ذلك .
وإنما نشير اليه تلك الإشارة العابرة ، تمهيدا للنظر فى الرياضة القرآنية ، على بصيرة ، ورصداً لخطوات القرآن فى ذلك : نقبل من قول مفسريه ما نقبل ؛ وننظر فى غير ذلك من أقوالهم ، على أساس من قول هؤلاء البصراء بالنفوس المهذبين للغرائز ، مقدرين دائماً ما قررناه وكررناه من عناية الذكر الحكيم بهذا الجانب النفسى تلك العناية التى آمنا بها ، فرددنا الاعجاز البلاغى إلى معانى نفسية ، وأردنا لنقيم التفسير السليم ، على أساس نفسى يزيد وضوحاً وجلاء ، كلما ازداد الناس بالنفس البشرية معرفة وخبرة

***

وأحسب أن القرآن قد التفت التفاتا قويا إلى هذا الشأن للغريزة ، فى القصد والجور ، والتهذيب والتعلية ، والحاجة إلى ذلك فيما نسميه تقريباً للفهم ، غريزة التملك والاقتناء . .

وبين أن القرآن ، بعد الذى سمعنا من اعترافه بها وتقديره لحسن آثارها يقدر مع ذلك انها قد تنحرف عن الجادة ، وتجنح إلى غير الرشد . ولعله فى هذا يقول :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

— الانفال : ٢٨ — كما يقول :

إنما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

— التغابن : ١٥ —

وهو يحد من شرها عند هذا الجموح ، فى مثل قوله :

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

المنافقون : ٩

كما يسوق للعبرة حال من أفسد أمره ماله وولده فى قوله عن نوح عليه السلام

رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ، وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً

نوح : ٢١

وفى مثل قوله :

وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ

القلم : ١٠ — ١٣

بمثل هذه الحالة من فساد الحال بجموح نزعة التملك والتمول ينفى القرآن أن يكون المال والولد وسيلة إلى القربى والزلفى عند الله ؛ فيقول :

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً . . الآية

سبأ : ٣٧

وأن هذه الأموال والأولاد لا تغنى ولا تنفع . . كما فى قوله :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

آل عمران : ١١٦

وبهذا القصد والاعتدال ينهى القرآن عن الإعجاب والإغترار بالأموال والأولاد ، وأن هذه النزعة بذلك تصير إلى غير المصير الخير فلا تكون شيئا ذا قيمة فى أصحابها . وفى هذا يقول القرآن :

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

التوبة : ٥٥ و ٨٥

ففى كل هذه الآيات وما إليها لفت واضح إلى حال هذه النزعة البشرية للتملك والاقتناء إذا جنحت إلى الشر ، وأدت إلى غير ما ذكر الله فى غير هذه المواطن ، من عد الأموال نعمة عليهم وسبيل عزهم ودولتهم .. وكذلك يحدث القرآن عن مختلف أحوال النفس البشرية التى يعمد إلى تربيتها ، ويوجهها فى ذلك ، توجيه اللطيف فى رياضتها ، الخبير بخلجاتها

* *

وعلى هذا الأساس السليم ننظر فيما قال المفسرون فى تفسير هذه الآيات التى تبين انحراف النزوع الإنسانى إلى حب المال ، وتحذر منه ، فنرى أن تفسير آية كآية ، واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة — مما يعطينا مثلا ، من صلة فهم المفسرين للقرآن بما حولهم من طابع غالب فى ممارسة الحياة ، إقبالا أو نفورا ، وزهدا أو جدا ؛ فنرى مفسرا كالطبرى ، والحياة حوله بعد جادة نشطة يفسر هذه الآية بما خلاصته : أنه تعالى ذكره يقول للمؤمنين واعلموا أيها المؤمنون إنما أموالكم وأولادكم التى خولكم الله إياها فتنة ، وأن الله وهبها لكم اختبارا وابتلاء ، وأعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم لينظر كيف أنتم عاملون ، من أداء حق الله عليكم فيها ، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها ، وأن الله عنده أجر عظيم أى خير وثواب على طاعتكم فيما أمركم ونهاكم ، فى أموالكم وأولادكم التى اختبركم بها فى الدنيا ، فأطيعوا الله .. ألخ

وهو كما ترى ، فهم متأثر — نوعاً ما — بلون من الحياة العاملة ، الجادة ، لا يصل إلى شىء مما نسمعه من قول مفسرين عاشوا ، وقد تغيرت الدنيا حولهم ، عما كانت عليه ، فى القرن الثا[illegible] الهجرى ، عصر حياة الطبرى

فإذا بك تسمع الزمخشرى والنيسابورى ، بعد ذلك ببضعة قرون يقولان في تفسير هذه الآية نفسها ما خلاصته :

أن الفتنه فى الآية هى الوقوع فى الإثم والعـــذاب ، وإذا ما أوردا الابتلاء الذى ذكره المفسر السابق بأنه اختبار لامتثال ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فى هذا المال لينفقوه فى الخير ، لم يلبثوا أن يتقدموا منه إلى أن عليكم أن تزهدوا فى الدنيا وما يتعلق بها ، وتنوطوا اهتمامكم بما يفضى إلى السعادة الروحانية الباقية ، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد ، حتى تورطوا أنفسكم من أجلها

وكذلك تشعر بالفرق الواضح بين الجوين المختلفين لتفسير الآية ، إذ يذهب الثانى منهما إلى التنفير من الأموال ، والنصح بالزهد فى الدنيا وما يتعلق بها ، وهو ما كان فساد الحياة لعهد مفسريه قد روجه .

ولنا إلى أصحابه من الصوفية وغيرهم حديث عن المال ونظرتهم المختلفة اليه — وكيف يكون الزهد فى الحياة وما يتعلق بها ، مع امتنان القرآن على الناس بأن المال والولد كما أسلفنا هى أسباب العزة والدولة والغلبة ! !

وأما المفسر الأول فإنه مع عدم إخلاله ، بما رمى اليه القرآن ، من عدم التهالك على طلب الدنيا : وعدم جموح الرغبة فى المال والولد ، لا ينقبض عن الحياة العاملة ، والمشاركة الناشطة المعتزة ، التى تكسب الكرة والدولة بما اعتد الله من إنعامه بالمال والولد ، فى غير موضع من القرآن .

ويفصل بين الاتجاهين فرق وجهة الحياة ، أن أحدهما وهو الطبرى لا يؤدى تفسيره إلى إخلال بالمنهج النفسانى للقرآن فى تقدير البشرية ، وحديثه عنها وإليها ، حديث الخبير بها ، اللطيف فى تدبيرها ، العليم بما يصلحها ، الحكيم فى تناول ذلك من طرقه النفسية ، ووسائله الفطرية ، على ما نشير هنا إلى طرف منه

* * *

وقد يكون أقرب ما تستشرف له النفوس المشرقة من الاشارة إلى ملاحظة ذات قيمة فى تفسير آية :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ :

هو مكان الآية وسياقها ، وموضعها من سورتها ؛ وهى سورة الأنفال أى الغنائم ؛ وجو السورة ، وما احتوته من المعانى عابق بإيحاءات قوية تقضى بسلامة التفسير الأول الحيوى للآية المذكورة ، بما يصلها به من الحياة المجاهدة المناضلة ، وليس من اليسير أن تتصل آية سورة فى الأنفال ، التى هى غنائم الحرب بجو ينضح بالزهد فى الدنيا وما يتعلق بها ؛ والبعد عن ليلى وجاراتها ، كما سمعنا من قبل ؟ ! . أحسب أن ذاك ليس من اللمح الفنى لإعجاز القرآن ذلك الإعجاز البلاغى ؛ وفهمه فهما منعزلا عن سياقه ، مبتورا من عالمه .

* * *

على أنا نمضى قدما إلى ما وراء هذه اللمحات الفنية فى فهم الآية ، بعد ما اطمأننا إلى اتساق المنهج النفسى فى فهم القرآن ، لننظر إلى اعتبار آخر فى حديث القرآن عن المال ، واستعماله فى الحياة ، وما أحبه من ذلك ، ودعا اليه ، وأثاب عليه ؛ وهل هو متفق — قليلا أو كثيرا — مع الحث على الزهد فى الدنيا وما يتعلق بها ، وتقرير أن المال والولد فتنة ، أى بلاء بالإثم والعذاب بسببهما على نحو ما مضى من تفسير ! !

وسترى القرآن ، كما لفت إلى انحراف الرغبة فى المال ، قد لفت كذلك إلى الرشاد والصواب فى سلوكها ، وبم يكون ، فكان لنا فى هذا ما يتكامل مع حديثه عن انحرافها ، فى بيان ما يريده القرآن من سلوك خير لأصحاب الأموال ، وفى الحديث عن هذا الاتجاه الراشد لأصحاب المال يقول :

لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

التوبة : ٨٨ ، ٨٩

وحديثه عن الجهاد بالأموال والأنفس فى غير موضع يتصل بحديثه عن إنفاق المال ، والوعد بجزيل الثواب عليه ، فى مثل قوله :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

البقرة : ٢٧٤ .

ولن يكون الإنفاق بالليل وبالنهار ، وفى السر وفى العلن إلا من مال كثير يجد فى سبيل جمعه أولئك المنفقون ؟!

ويضاعف القرآن الثمار الخيرة لهذا الإنفاق بمثل قوله :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

البقرة . ٢٦١ .

وقوله :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ . فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

البقرة : ٢٦١ .

بهذه الآيات وأمثالها لفت القرآن أقوى اللفت إلى خيرية غريزة التملك المهذبة الموفقة ؛ وهو اللفت الواضح الذى لا نجده وحده فقط ، بل نجده فى الآية الواحدة ، مع النعى على جموح تلك الغريزة نفسها فتراه مع الحديث عن إلهاء الأموال والأولاد الذى يظن خطأ أنه صارف عن المال داع إلى الزهد فى الدنيا وما يتعلق بها ، وتراه فى هـذا الموطن نفسه يعقب على ذلك تواً بقوله :

وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. المنافقون : ١٠ .

وكذلك حين قال :

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ :

لم يلبث أن قال بعدها :

اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ :

التغابن : ١٦ .

وكذلك ترى القرآن إنما يذكر هذه القوة من الفطرة الإنسانية بخيرها إذا رشدت ، وشرها إذا انحرفت ، ولا ينكر أبداً خيرها على الحياة ، ولا ينفر من الدنيا ، ولا يحط من شأن المال فى الحياة ، بل يضاعف أثر الإنفاق ويجزل المثوبة عليه ، فيما تلونا .

* * *

فالقرآن. بعدمسلكه النفسى، فى تقرير هذه الحقيقة عن الفطرة ، يشير إلى أنها فى حاجة إلى رقابة مرشدة وتوجيه سديد .. وسنرى أنه ، على خطته النفسية الواقعية تلك ، يدبر لذلك ، ويهيء لهذه التربية والتعلية .

١٥ / ٦ / ١٩٤٤

تحويل نفسى

﴿ اتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾:

رأينا القرآن ، وقد اعترف بغريزة التملك ، يعرض للحديث عنها فى حالى جنوحها للخير ، وجموحها إلى الشر .

وهو يحدث عن غير حال من تلك الأحوال النفسية نحو المال .

فهو فى غير قليل من المواطن يحدث عن البخل والشح ، بما فى ذلك من جموح الغريزة جموحاً يصبح به التملك والاقتناء لذة لذاته ، فإذا جد الناس فى الاقتناء وإحراز المال لأنه يهيء لهم متعة ، ويقرب لهم لذة فإن هذا البخيل قد أمست الوسيلة عنده هى الغاية نفسها ، إذ يرى لذته فى حيازة المال ، يرنو إليه مرصوداً ، ويرقبه مكنوزاً ، لا يمس شيئاً منه ليبعث به فى تحصيل شيء ، أو اقتناء شيء . . وهو لون من جموح مسرف لغريزة الاقتناء والإحراز للمال .

والإسراف المبدد للمال طرف مقابل للبخل ، إذ يرغب الراغب فى المال ليسرف فى نوال لذاته به ، وإرضاء شهواته عن طريقه ، لأنه الذى يمكنه من ذلك ، فهو يحب أن يملك كثيراً ليصرف كثيراً ، وذلك جموح أيضاً فى غريزة التملك ، نعرف أن قد عرض له القرآن كثيراً ، ونعاه على أهله ، فى غير آية ، فدل بذلك على حاجة هذه النزعة النفسية إلى المراقبة ، وسلامة التوجيه . . .

وهذه المراقبة وذلك التوجيه هو ما نريد لنعرض لخطة الذكر الحكيم فيه ، لنلم بأصولها ومبادئها ، استبانة لجملة الفكرة القرآنية فى تدبير

أموالهم ، على وجه رشيد ، يوقى جموح غريزتهم فى التملك ، ويدير هذا المال بينهم ، على أساس يظلله الشعور الإنسانى العطوف ، الذى هو أول ما يبثه التدين فى نفوس المؤمنين ، حينما يصدق إيمانهم ، وتطمئن قلوبهم . .

وقد أنسنا إلى الأساس النفسى الذى يقيم عليه القرآن تدبيره ، فيما سمعنا من اعترافه بغريزة التملك ، وأثرها فى النشاط الحيوى . .

* * *

وينظر المبصرون أنفسهم، إلى سير الحياة الإنسانية فيرون أن الناس منذ عرفوا الحياة المستقرة ، فى جماعة ، يأخذون منها ويعطونها ، قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تهذيب غرائزهم ، والحد من اندفاعها ، فجعل المصلحون والمربون يروضونهم مختلف الرياضة ، من لاهوتية روحية ، وقانونية عملية وخلقية عقلية ، وغير ذلك ، وجعل أصحاب هذه جميعاً يحدثون عن ضبط النفس ، بمختلف أساليب هذا الضبط ، ويتدرجون فى ذلك بتدرج الانسانية ، وإن كان بعض هذه الوسائل الساذجة والأساليب البدائية ، مما لا يزال يعمد إليه الناس حتى اليوم ، فى البيئات التى لم تصب من الرقى البشرى حظاً كبيراً ، ويحسب أهل هذه البيئات أن بعض هذه الطرق الخاطئة هى الأجدى والأفعل فى ذلك التهذيب والترويض . .

وحديث هذه الوسائل فى التربية وتدرجها ورقيها حديث مسهب طويل تتولاه جهات للدرس مختلفة ، وليس هنا موضع لشىء من القول فيه . . وإنما نريد ، على ما ألفنا فى هذه الأحاديث ، أن نبين الوسيلة التى آثرها القرآن فى تعلية غريزة التملك وتهذيبها ، فنرى أن هذه الوسيلة — على ما كررنا — نفسية الأساس .

وإيضاحاً لهذا نشير بين يدى هذا البيان ، إلى وسائل قد اشتهرت عند الناس وألفوها ، حتى اطمأن بعض المتكلمين ، فى تلك الشئون الإسلامية، من القدماء والمحدثين، إلى وسائل منها ، لا يقرها الهدى القرآنى ، ولا تلائم الروح الإسلامية ، التى يحمى القرآن جوهرها ، وهو ما نشير إلى

بعضه هنا ، ونرفض منه ما نرفض غير متأثرين بعدوى غريبة جاءت الحياة الإسلامية . من مخالطة شعوب مختلفة ، وانفعال بمؤثرات أجنبية . . وهو ما نشير إلى شيء منه هنا ، مهتدين إلى نقده ورفضه بالروح القرآنية ، فى تقدير واقع النفس الآدمية .

* * *

ومن ذلك مثلا ما غبر الناس عليه ، حين حسبوا أن الطريقة المثلى فى كبح غريزة وضبطها هى :

أن يقمعوها قمعاً ، ويقهروها قهراً كابتا ، يقضى عليها ، ولا يدع لها طريقاً لظهور أو امتداد ، حتى يستطيعوا أن يخمدوها تماما ، ويتصدون فى ذلك لرياضات قاسية ، ويتحملون آلاما مبرحة ، نعرف بعضها عند بعض أصحاب الأديان ، ويتحدث بشىء منها فى الإسلام نفسه ، على لسان بعض الصوفية ، فى طرق هـــذا القمع والإذلال ، وإن تفاوتت فى ذلك شدة وضعفا ، عما كان عند غيرهم . .

وفى كل حال كان يصل هؤلاء المحاربون للطبيعة إلى نتائج ظاهرة خادعة ، يحسبونهـا نجاحا وانتصاراً ، وهى من الناحية النفسية ، والواقع الحقيق ، عنـد النظر الدقيق لا تنتهى إلى شيء من النتائج الخيرة ، بل هى فى المآل ضارة ، بالفرد نفسه ، ثم بالمجتمع الذى يعيش فيه .. ضارة بما تصير إليه من التعطيل والشلل المناهض للفطرة ، وغير الصالح للتعميم والالتزام التام ، والمؤدى إلى بؤس الحياة وسوء أمرها ، فلا تـكون حياة بين الأحياء ، ولا موتا فى الذاهبين الفانين .. وهى قبل ذلك ضارة بانتهاء هذا الـكبت غير الفطرى ، والقمع غير الطبيعى ، إلى الانفلات ، بالتخلص بمخلص ما ، غير طبيعى ولا مشروع ، وذلك هو سبب شيوع صنوف من الرذائل التى تنتكس بهـا الطبيعة ، وتنقلب الفطرة . . ورب إشارة فى هذا أبلغ من عبارة . . ولا حاجة إلى مزيد من بيان .

ويكفى هـذا للقول بأن القرآن حين يقصد إلى تعليـة غريزة التملك

وتوجيهها ، لم يعمد قط إلى هذا القمع الكابت ، فلم يجعل المال لعنة ، ولا الغنى خطيئة ، ولا طرد الغنى من ملكوت الله ، ولا وجه إلى الزهد المنقطع عن الحياة ؛ على نحو ما أشرنا إليه فى الحديث الماضى ، حين عرضنا تفسيرين مختلفين الآية : إن من أموالكم وأولادكم فتنة ؛ وتبينا أن ما دخل على فهم هذه الآية متأخراً ، إنما هو مما نعده العدوى الغربية ؛ والتأثير الأجنبى ، كما يبين ذلك التاريخ الاجتماعى للحياة الإسلامية . . وما ننس لا ننس أن القرآن يعد المال نعمة ، يمد الله بها الصالحين ، ويثبت لهم بها الدولة ، ويرد لهم الكرامة والكرة ؛ ويتساءل كالمنكر عمن حرم المتعة به فى قوله :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ! قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. الآية» الأعراف : ٣٢ .

وهو — كما سلف — يذكر بالخير والثواب الإنفاق بالليل والنهار ، سراً وعلانية ؛ وبكل أولئك نتأكد أنه بعيد كل البعد عن الأخذ بمبدأ القمع ، والكبت ، والحرمان ، والتعذيب ، لرغبة التملك ؛ فتنقلب إلى مصدر للقلق والاضطراب النفسى فى حياة الفرد الصحية ، والعقلية ، والوجدانية ؛ وينتقل ذلك ، من قرب ، إلى حياة المجتمع ، الذى يأتلف من أفراد ، مضطربى البواطن ، متهورى الرغائب ، تنازعهم نفوسهم إلى ما طبعت عليه ولا ذنب لهم فيه ، حين يجذبهم المصلحون المتطرفون إلى ما لا يد لهم به ، أو إلى ما يورثهم خبيئات نفسية مفسدة متلفة . .

لقد تجافى القرآن كل أولئك وما إليه ، فى تعلية غريزة التملك .. فماذا فعل لتحقيق رغبته فى هذا التهذيب ؟

هذا ما نشير هنا إلى جملته الشاملة ، بانين إياها ، على ما أسلفنا الإشارة إليه ، من اللمحات العامة فى هذه الأحاديث عن هدى القرآن « فى أموالهم »

ونذكر من ذلك أول ما نلفت إليه مما مضت الإشارة إليه ، وهو :

١ — تناول الكليات الكبرى ، والأسس العامة ، دون عناية بتفاصيل التطبيق الفردية ،عناية تجعله يزج بنفسه ، بين أصحاب الدعاوى من المذهبيين، ويهز فى نظار الزمن واختلافه صورة عمومه ، الصالح لتناول أهل الأرض قاطبة ؛ وبقائه الخالد ، على تغاير الأزمنة ، وتداول الأيام

٢ — الإنتفاع بالعقيدة ، لتكون صلة قوية ، ورباطا جامعا للجماعة ، تكف من غلوائها ، وتقلم أظفار شرهها ، وتربط على قلوب أهلها ، وتشيع بينهم من التعاطف مايملأ الفراغ الذى نشرته بينهم الفروق ، فيقرب مابين قلوبهم ، ويكف من غلواء الواجدين ، وحقد الفاقدين . . وفى إجمال : يكبح جماح غريزة التملك ، فلا تندفع بالقادرين إلى الجشع المستحل للحرام ، ولا تغرى الفاقدين بالوصول إلى المال عن الطريق غير المشروع . .

* * *

والقرآن يتابع وسائله فى هذا الكبح لجماح الغريزة ، على أساس من الاعتراف التام بها — كما رأينا — ومع تقدير لإمكان إجراء رياضة نفسية مستطاعة ، غير شاذة ، ولا مناطحة للطبيعة ، وتلك هى مايسمى فى قول النفسيين بالتحويل النفسى ، الذى يمكن به تعلية الغريزة ، وهى آخذة طريقها ، متجهة وجهتها ، غير مصدودة ولا مردودة ، ولا مقهورة بلى العنق ، وشد الشعر . .

وهذا التحويل النفسى هو الأصل العام الذى أصله ما سبق ، من احترام الواقع الفطرى فى كيان الإنسان ، وارخاء العنان لحب المال ، وعد الاستكثار منه طريقا لإسعاد الحياة وتكريم الإنسان . . مع فتح مسالك ومنافذ للتحويل النفسى ، ببعض ما سمعنا من توجيه ، لا يضن ويبخل ، ولا يبدد ويسرف . . ولا يغتر ويستكبر . . ولا ينكر القيم ويجحد اليقين . . ولا يحسب المال هو الدنيا والآخرة جميعا ، ولا ينسى ما هو خير ثوابا ، وخير أملا . .

على أنه مع كل ذلك ليس محروما من متعة ، ولا مكبوتا عن لذة .. ومع الاستعانة فى ضبطه ذلك واعتـــداله بالعقيدة ، يسموبها المثل ، ويرق القلب ، ويرجى الثواب ، وتدفع إلى اعتراف بحق المجتمع فى مال الفرد ، كحقه فى دمه ، وجهده ، وتعاونه .

وهذا الأصل من التحويل النفسى ، تعلية لغزيرة التملك ، ليس هنا إلا الإشارة الجامعة إليه ، تلفت النظر إلى نواحى من طرائق هذا التحويل ، ومسالك هذا التوجيه ، ومبادىء هذه الصلة بين الأموال وأصحابها ، ومدى حقهم فيها ، وحق غيرهم منها . .

وكل أولئك مجال لتال من القول يشرحه هدى القرآن ؟

١٩٤٤/٦/٢٩

في أموالهم

تعديل البيت [1]

وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .

نقول فيما قوم به القرآن غريزة التملك فى أمته . . وقد رأيناه يستعمل التدين فى ذلك، فيجعله كما أرادته الحكمة السامية ، عاملا قويا ، فى إصلاح البشرية وبدا لنا كيف يروض الكتاب نفوس أمته رياضة صحيحة المبدأ ، صادقة الأثر ، أساسها الخبرة الحكيمة بالنفس البشرية، وهدفها أصلاح تلك النفوس ، إصلاحا يعدها لحياة سعيدة مجيدة ، تتسق أولاها مع أخراها ؛ فتتصلان اتصالا متساميا متكاملا ، عرفنا فيما سلف غير القليل ،من هدى القرآن فيه . .

وبذلك بدا لنا الجانب النفسانى المشرق ، والجانب الإجتماعى المسدد ، فى سياسة القرآن للأفراد والجماعات . . وتجلى لنا ، كيف رفض ، أن يعمد فى تعليته الغريزة ، إلى شىء من القمع . أو الـكبت ، أو الـكتم ، الذى وقع ويقع الناس فيه كثيرا ، فيناوئون الفطرة ، جهلا منهم بنواميس الوجود الانسانى . . واتضح ، كيف : أنه قد اعتمد فى تهذيب تلك الغريزة ، على التحويل النفسى الذى يقصر الغريزة ، على بعض نواحيها ، دون بعضها الضار ، وكيف أنه أتم ذلك التحويل ، فى جو روحى ، إيمانى ، اعتقادى حسن الأثر ، مهيء للتقبل . .

ولقد بقيت من خطته تلك ، بقايا جليلة ، نريد لنلم بها الآن ، فى إجمال وقرب ، على مثال ما ألممنا به ، من سائر جوانب تلك الخطة آنفا ، راجين بذلك استكمال الفكرة القرآنية عن صلة أصحاب الأموال بأموالهم ، وموقف الفقراء معهم ، وهى مشكلات قديمة حديثة .

---

(١) لم يسمح باذاعة هذا الحديث سنة ١٩٤٤ .

بها المصرون أنفسهم . . إذا كان أصحاب النفسيات ، يقدرون فى تهذيب الغريزة ، تأثير التحويل النفسى ، والتبديل النفسى ، والاستعانة بغريزة على غريزة ، وما إلى ذلك من مؤثرات نفسية داخلية ، فإن أصحاب النفسيات هؤلاء ، ليقدرون كذلك ، فعل المؤثرات الخارجية ، فى هذا التهذيب ، ويقررون أن الأنسان يتأثر بما حوله ، من نظم وأوضاع يخضع لها ، أو يتعامل بها ، سواء أكانت تلك النظم ، دينية اعتقادية ، أم كانت خلقية أدبية ، أم مادية عملية ، أم فنية معنوية . . فيعلمون أن البيئة المعنوية ، كالبيئة المادية ، لها فعلها القوى ، فى تعلية الغريزة ؛ ومن هنا كان ما سموه « تعديل البيئة » طريقا هاما ، من طرق رياضة الغرائز البشرية ، وكان الذى يحاول هذه الرياضة ، ملزما بأن يفكر فى أمر البيئة التى يتيسر فيها التباعد عن المثيرات ، التى تهيج جماح الغريزة ، وتدفعها إلى النواحى الخاطئة ، من أعمالها ؛ كما عليه أن يهىء فى تلك البيئة ما يتيسر معه ، اتجاه الغريزة ، إلى الصالح من عملها ، ويسهل عليها تحقيقها له ، وذلك وما إليه هو ما سموه تعديل البيئة ؛ وهو ما نريد لننظر كيف قدر القرآن أثره ، فى تهذيبه لغريزتنا فى التملك .

* * *

فى الحق أن هذا القرآن ، قد قدر الأثر النفسى للبيئة ، حينما قدر الوحدة الاجتماعية ، والصلة الوثيقة بين الفرد والجماعة ، وقرر أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، وقرر أن المؤمنين كالجسد الواحد . . إلى ما تعرفون من ذلك . .

ثم فى الحق أن القول عن عمل القرآن ، فى تعديل البيئة ، التعديل الخاص بتهذيب غريزة التملك ، قول تتسع آفاقه ، وينبسط مداه ، حتى ليقتضينا النظر فى أصول النظام المالى ، الذى وضعت عليه الحياة العملية لأصحاب القرآن لكى نلمس منه ، ما كان من تعديل لبيئتهم ، يقى جموح

غريزة حب الملك فيهم ، سواء أكانوا أغنياء واجدين أم فقراء فاقدين ، وسنجد فى أسس هذا النظام المالى ، وفى أصوله البعيدة ، معدلات هامة ، لتلك البيئة الإسلامية ، ولكننا لا نحب أن نمضى قدما ، إلى هذه الآفاق الفسيحة ، بل نؤثر هنا أن نكتفى الآن ، بأصل أو أصلين ، من هذا التعديل نحس معهما أن القرآن قد عنى بهذا التعديل ، وعمل لتحقيقه ، عملا يخص الأغنياء المتملكين ، وعملا يخص الفقراء المتطلعين ، وبذلك نحقق ماقصدنا اليه منذ بدأنا هذه الأحاديث ، فى أموالهم ، فذكرنا أننا نبحث عن الفكرة الأسلامية الكاملة ، فى صلة أصحاب الأموال بأموالهم ، تبينا للايحاء الاجتماعى ، فى تعبير القرآن عما يعطونه لجماعتهم ، بعبارة القرض وإقراض الله .

ومن تأمل فى تعديل البيئة ، تعديلا ماليا ، يحمى من جموح غريزة الملكية ، شخصت أمامه تلك المشكلات الأزلية ، فى الملكية الخاصة ، ومداها ، وآثارها ، وتراءت له تلك الحلول الخالدة ، المكررة قولا أو عملا ، فاتصل أمام عينيه ، قديم الدنيا فى ذلك بجديدها ، ووجد تلك المذاهب الاجتماعية العملية اليوم ، قد كانت أحلاما ، أو آمالا ، أو آراء ، أو تجارب مصغرة ، بالأمس البعيد أو القريب . .

فما الذى مسه القرآن ، من تلك المشكلات والحلول فى الملكية الخاصة وما الأصول التى أشار إليها فيها ؟

لو قلنا إنه لا يعطف على تلك الملكية الفردية ويكاد ينكرها ، لوجدنا سندا فى تلك الآيات التى حملتها اليكم . فواتح الأحاديث السابقة بعنوان « فى أموالهم » من مثل قوله : وآتوهم من مال الله ، الذى آتاكم ؛ وقوله : وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالمال مال الله ، لا مال الناس . . بذلك جرى عموم اللفظ دون نظر إلى المعنى الخاص ، فى موضوع المكاتبة ، الذى وردت فيه الآية ؛ وفى المفسرين الأقدمين[1] من يقول : وآتوهم ، أى المسلمين ، والمراد :

(١) النيسابورى — هامش الطبرى جـ ١٨ ص ٨٦ .

أعطوهم سهمهم الذى جعل الله لهم من بيت المال . . فلا يخص الأمر فى الآية بالعبد المكاتب ، بل يأخـــذ بأصل المعنى الذى تلمحه من قوله: «مال الله» . . ويشعر بحق الجماعة فى مال المالك، وإن كنا نحن نشعر من هذه الإضافة بأعمق من ذلك ، فى معنى الملكية ، وأنها ليست المعنى المفهوم للكثير من أصحاب رءوس الأموال ؛ بل هم فى نظر القرآن ، كما يقول فى الآية الأخرى ، مستخلفون فى المال فقط كما خاطبهم قائلا ؛ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ومنها يفهم المفسرون السابقون : ان الأموال التى فى أيديكم . إنما هى أموال الله ، بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها ، وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء ، فى التصرف فيها ، فليست هى اموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها الا بمنزلة الوكلاء والنواب ، فأنفقوا منها ... وليهن عليكم الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل ، النفقة من مال غيره[1] .

تلك عبارات المفسرين الأقدمين . وهى كما تسمعون ، عبارات واضحة الإيحاء ؛ وإن لم يستشرفوا منها ذلك المدى الجلى ، فى النظرة القرآنية إلى الملكية الفردية ؛

ثم تتلو مع هذه الآية ، مثل قوله : هُوَ الذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً . .

ثم تذكر الكثير من السنة يضيف المال إلى الله . لا إلى الناس ؛

وتتمثل شخص أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، وهو الزاهد الصادق ، حين أساءوا فهم نسبة المال لله ، وأردوا احتجان المال فصرخ فيهم : أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه ، أكثر من قوت يوم وليلة ، أو شىء ينفقه فى سبيل الله ، أو يعده لكريم[2] ومازال يدعو دعوته ، حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء . . . فنكاد من كل أولئك نحسبها شيوعا أو اشتراكا دينياً ؛ قد أشار اليه القرآن منكرا الملكية الفردية ؛ ولكنك

(١) الزمخشرى ــ الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤ ط محمد مصطفى .
(٢) ابن الاثير ــ التاريخ جـ ٣ ص٤٣ ط محمد مصطفى سنة١٣٠٣هـ

تذكر أيضا أن هذا القرآن قد سماها كذلك أموالهم وقال لهم فى الخطاب : أموالكم ، وذكر أنهم كسبوها ، وقال : وأنفقوا من طيبات ما كسبتم ، وقد نظم ملكيهم لها ، ودبر له وشرع ، بل تسممه ، وقد طلبها منهم يقترضها الله ؛ فتجدها ملكية خاصة ، قد أشار إليها القرآن وقدرها . فأنت بين هذين تسائل ! ما رأى القرآن فى هذه الملكية أإنكارا وتوهينا ، أم اعترافا وتقريرا ؟

أما أنى لأحسب أن هذا الصنيع القرآنى ، من المحاولة الكبرى ، فى تعديل البيئة الإسلامية تعديلا اجتماعيا وخلقيا يهذب غريزة التملك ، فى أصحاب القرآن . . وهو كدأبه الذى أنسناه منه ، يجمع بين الواقعية والمثالية فى ذلك التدبير جمعا لبقا مرنا ، مسايرا للحياة ، مهيئا للإنسانية أسمى ما تستطيع التطلع اليه من المثال .

فهو حين يحمى الملكية الفردية واقعى ، لا يفجأ الناس ، بتجريدهم من أموالهم ، تجريدا يفتر همتهم ويثنى عزائمهم ، ويقعدهم فلا يبتكرون ، ولا يجددون ، ولا يذودون عن حماهم . .

ثم هو حين يهز أسس هذه الملكية الخاصة ، بما رأيناه ، يكون مثاليا ، يكف من غلواء الأغنياء ، ويزلزل صلتهم بأموالهم ، ويجعلها للناس جميعا . هم عليها أمناء مستخلفون ، وهى مال الله لا مالهم .

بهذا التعديل الدينى الأساس ، السماوى الصبغة ، الإلهى الروح يوقيهم أخطار الجموح فى التملك ، والوصول إليه بأى وسيلة ، وإهدار الخلق والفضيلة ، والإسراف فى التمتع ، ونسيان حق الجماعة ، أو حق الله الذى هو صاحب المال . ثم يمضى الناس فى طريقهم ، يتقدمون ، ويتعلون . ويرقون . ويتطلعون إلى المثل السامية . فتهيء لهم مثالية القرآن من ذلك . ما لو صار عموما محضا ، واشتراكا كاملا . ونسيانا للذات تاما . لما رأى فيه القرآن بأساً ، ولا حال هديه دونه . . فليهذبوا غريزة التملك ما استطاعوا . . وليعدلوا بينهم ما تساموا فتلك مرامى القرآن وهديه .

(١٣ يوليو ١٩٤٤)

على فترة

يطول الأمد ، وتمضى خمس سنوات ونصف سنة وأيام ، لا أذيع فيها شيئاً من هدى القرآن فى أموالهم ، أولا أذيع مطلقا : ثم يطلب إلى أن أعاود الإذاعة ، فأعود إلى الموضوع من حيث تركته ، ولا أتذكر الحديث الذى لم يذع ، ولا أذكر أنى رجعت إليه ، وربما أكون قد رجعت إليه وأعدت كتابته بعد تلك السنوات إصراراً منى على إذاعة المعانى التى منعت من إذاعتها فى يوليو عام ١٩٤٤ .

ومنذ ذلك الحديث بدأ يتغير عنوان هذه الأحاديث فصار : من هدى القرآن فى مشكلات الاجتماع : مشكلة المال ، بعد ما كان من هدى القرآن : فى أموالهم .

ولم أر بأساً فى نشر الحديث التالى تحت رقم ٢ للحديث السابق ، مع تلاقيهما فى الفكرة تأكيداً لها .. وهى جديرة بهذا التأكيد ، وتسجيلا لتاريخ تطور التفكير فى مشكلة المال ، التى انتهت اليوم إلى الحل الاشتراكى الذى كانت تنظر هذه الأحاديث بظهر الغيب إلى أفقه البعيد .

تعديل البيت

- ٢ -

اجتمع الناس ليتعاونوا ، ويستكملوا بهذا التجمع المتعاون وسائل الحياة الطيبة . . وإذا ما كانت لهذا الاجتماع آثاره الخيرة ، فإن له بطبيعته مشكلاته المتعبة ، ومن بينها مشكلة قديمة حديثة ، دبرت لها الإنسانية وقدرت ثم لا تزال بها الحاجة اليوم إلى التدبير والتقدير . . تلك هي مشكلة المال عصب الحياة . يجده بعض الناس ، ويحرمه بعض آخر ، فيكون لذلك أثره في فساد صلتهم وتفريق أمرهم ، واضطراب شئونهم ، في صور متعددة من جرائم وأخطاء يقع فيها أفراد ، أو تنزع إليها جموع . . وكل هذا مما يقض مضجع القائمين على تدبير الشئون ، ويعرض الواجدين والفاقدين جميعاً ، للعناء والشقاء ، الذي قد ينتهي إلى إضاعة الحياة نفسها . . . تلك هي مشكلة الملك وسواها ، تجعل روابط ما بين الناس في تجمعهم ، موضع الحاجة للتنسيق والتدبير . . .

وقد عمل لتحقيق ذلك ، الوحي والعقل ، وجاهدت السماء والأرض ، ودبر له الدين ، والفلسفة ، والأخلاق ، والقانون ، والسياسة ، والاقتصاد ، وغير ذلك ، مما يعاني حل المشكلات الاجتماعية . . . وإذا ما كانت تلك المحاولات تؤيد مرة بالقوة الوازعة ، ومرة بالخبرة اللبقة ، وآنا بالعقل المفكر ، وحيناً بالدرس المجرب ، فإن الدين من بينها ، يعتمد على الوجدان الراضي ، والنفس المطمئنة ، واليقين المريح بالحق ، والرجاء الواثق بالعدل . فإذا ما اجتمع له مع ذلك كله ، تدبير حكيم لتلك المشكلات وهدى قويم في هذه الصعوبات ، كهدى القرآن ، كان من وراء ذلك خير كثير ، وفيه أمل كبير . . .

وقد رأينا القرآن الكريم ، فيما عرضنا له ، من ألوان هديه ، يجعل هذا التدين ، كما أرادته الحكمة السامية ، عاملا قوياً في إصلاح البشرية ، والسمو

بها .. وبدا لنا كيف يروض النفوس ، رياضة صحيحة المبدأ ، صادقة الأثر أساسها الخبرة بالنفس البشرية وقواها ، وهدفها إصلاح تلك النفوس ، إصلاحا يساير فطرتها ، ويقوم واقعها ، فبدأ لنا فى الحديث عن هدى القرآن ، ذلكم الجانب النفسى المشرق . وذلكم الاتجاه الاجتماعى المسدد فى سياسة الأفراد والجماعات ، وتجلى لنا أنه لا يعمد فى هذه الرياضة ، وتلك السياسة ، إلى شىء من القمع المتعسف ، ولا الكبت الخانق ، ولا الضغط المحتكم ، الذى وقع فيه الناس كثيراً ، فناوءوا الفطرة ، وقاوموا سنن الوجود ، كما أنه لا يقف فى تلك السياسة ، عند الاستهواء المخدر ، ولا يكتفى بالمدهدة المستنيمة ، بأقوال معسولة ، وعبارات خلابة ، فى غير خطة عاملة وفكرة واقعة ، كما يفعل الناس حينا ، فيصلون إلى شىء من التسكين الوقتى لاشفاء فيه لمرض ، ولا قضاء على ألم ، بل قد تتلوه نكسة مهلكة ، ورجعة قاتلة .

وقد عرضت قبل الآن هدى القرآن . فى تلك المشكلة ، بعدة من الأحاديث « فى أموالهم » بينت فيها نواحى من هذا التدبير ، الخبير بقوى النفس ، ونواميس حياة المجتمع . وأريد اليوم لأشير ، إلى شىء من هذا التدبير الرزين العميق ، لمشكلة المال ، بين الواجدين والفاقدين ، من مشكلات الاجتماع . وما ينشأ عنها من آثار عنيفة ، تهدد بناء المجتمعات البشرية ، وتزلزله زلزلة مهلكة .

إن هذا القرآن فى تدبيره لمشكلة المال ، يعرف فى الناس . غريزة التملك ويعترف بها ، ويقيم عمله ، على أساس تهذيب هذه الغريزة فيهم ، لا مقاومتها وهذه واحدة مما يؤخذ عنه من سلامة النظرة ؛ وضرورة الاعتماد على الخبرة النفسية ، فى معاناة هذه الأشياء .

وننظر بعد ذلك فى تناوله لمشكلة المال الاجتماعية ، على أن تقدر أن هديه هذا وحدة ، يتصل بعضها ببعض ، وترتبط الآى المتفرقة منها ارتباطا

وثيقا، مهما يكن زمن نزولها بعيداً ، أو مكانها متنائيا . ثم تفهم هذه الآيات فهما نفسيا عميقا، معتمداً على ذوق قوى، وحس أدبى صادق. فى فهم العربية، يدرك إيحاء الألفاظ، ووقعها على النفس، وينتبه لدلالات العبارات وإشاراتها، غير واقف عند معانيها المصمتة المتبادرة، متذوقا لفتاتها البليغة، ومراميها الأدبية فى ذلك، بمعرفة صادقة للنفس الإنسانية، وحركاتها، ليصل بذلك إلى أصول عامة فى حل هذه المشكلة، لو صدقت النية فى الانتفاع بها، وصحت العزمة على تحقيقها، مع مواتاة العاطفة الدينية، لنالت منها البشرية خيرا كثيرا.

وسنضع تلك الأصول بين يدى أمة القرآن، راجين أن يوقيها ذلك الكثير من أخطار اجتماعية لمثل هذه المشكلة.

* * *

أمة القرآن تجد معرفة الكتاب الحكيم لغريزة التملك وإعترافه بها واضحا فى إضافة الأموال إلى أصحابها. وفى ذكر كسبهم، وفى عد أخذها منهم إقتراضا، بل اعتباره إقراضا لله نفسه، سبحانه وتعالى، فهو يقول «خذ من أموالهم صدقة.. وأنفقوا من طيبات ما كسبتم.. وأقرضوا الله قرضا حسنا. من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له. وهكذا تحس أن للواجد منهم مالا كسبه، وأنه يقرضه، وهو تقدير لملكيته، واحترام لها، أكده القرآن، فشرع ودبر لحماية هذه الملكية، ونقلها وتلقيها، وما إلى ذلك، فكأنه مطلق اليد فيها، وكأن القرآن يؤسس بذلك للمشكلة، ويعين على تعقدها.. لكنك تمضى قدما فتراه لا يبقى من ذلك إلا ما يثير جد الناس ونشاطهم، وجهادهم بهذه الملكية، ثم هو يروض نفوس الواجدين والفاقدين جميعا، رياضة لو حققناها لقدمت لنا أصولا عامة، تزيل الخطر وتمنع الضرر به.

أمة القرآن — ما يلبث الذكر الحكيم أن يسمعك مثل قوله للمالكين فى عبارة واضحة «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم.. وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين

فيه، وفى فهم هذا يقول المفسرون الاقدمون أنفسهم[1] إن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما مولكم إياها ، وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها ، وليهن عليكم إلا نفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره

ثم إذا الآثار تقرر أن المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، والأغنياء وكلاء الله على عياله . ويقوى هذا المعنى كلما قوى الشعور بالوحدة الاجتماعية، برقى الإنسان وتقدمه .

وكذلك يعطى القرآن أصلا عاما فى رياضته نفوس المالكين الواجدين، وهو أصل جليل ، فى علاج المشكلة

ثم هو يتقدم ليتحدث إلى الفاقدين، بعد ما عرف تلك النفوس وغرائزها . .

* * *

يروض كتابكم أنفس الفاقدين فإذا هو لا يزهدهم ، ولا يحاول تنفيرهم من المال ولا يكتفى بأن يمنيهم بالتعويض المقبل ؛ بل هو يقرر حقهم فى الدنيا، فحينا يجعله حقا ، وآنا يصفه بأنه حق معلوم «وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» ، وقد سمعته يأمر بإيتائهم ، من المال الذى وكل واستخلف عليه الواجدين وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . . وتسمع المفسرين الأولين[2] أيضا يجعلون هذا أصلا عاما ، ولو أن الحديث كان عن إعطاء الأرقاء المال معاونة لهم على التحرر ، فيقرر أولئك المفسرون السابقون ، من قرون : وآتوهم ، أى المسلمين ، والمراد أعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم من بيت المال ، فيأخذون بأصل المعنى الذى نلمحه من جعل المال مال الله وهو تقرير حق الجماعة فى مال المالك الحائز . . وحق الله فى لسان فقهائنا هو

---

(١) الزمخشرى ، الكشاف ٢/٤٣٤ .

(٢) النيسابورى هامش ج ١٨ طبرى ص ٨٦

دائما حق المجتمع — وبهذا يضع القرآن أصلا عاما ثانيا ، فى حق الفاقدين مع الذى وضعه فى حق الواجدين ، وكذلك تكتمل الأصول الكبرى لحل المسألة فى الاعتراف بغريزة التملك والاقتناء ، وفى تعديلها فى نفوس الواجدين ، بتكرير الدعاء إلى الله ، وأنهم مستخلفون ، فيهز ذلك من قلوبهم ويكفكف من إسرافهم ، ويدعوهم إلى أن ينفقوا ، إنفاق الشخص من مال غيره ، ويعرفوا حق الجماعة فيه .

ثم يقدمها إلى نفوس المحرومين ، بتقرير حقهم المعلوم ، فى مال الله ، دون غضاضة على أنفسهم ولا مرارة ، مع الأمر بإيتائهم من هذا المال ، مال الله ، المستخلف فيه أولئك الحائزون له ، القوامون عليه .

وإذا ما اضطربت الدنيا حولكم ، بفعل هذه المشكلة العتيدة ، التى تهز كيان الأمم ، وتخلق الاتجاهات المذهبية المختلفة ، فاسلكوا فى سبيل علاجها ، الطريق السوية ، التى تقر حقيقة النفس الإنسانية ومنازعها ، فلا تخدعوا الفقراء بتزيين الفقر ، والحض على الزهد ، ولا تدعوا الأغنياء دون تدبير وتشريع ، يهذب النفوس ، ويقرر الحقوق ، ويستخرجها من مال الله ، ويؤديها لعباد الله ، ولا تنكروا فيها حق المحرومين المعلوم ، بل قرروا اعترافكم ، ودبروا أمرهم على أساس الاعتراف بهذه الإنسانية ، وحقها ، والجد فى إيصاله إليها ، فبذلك تكفون شر الجموح النفسى ، وتتقون شر التطرف الفقير .

ذلكم هو هدى القرآن ، فى علاج تلك المشكلة الاجتماعية ، ذلك الهدى الذى يجهر به كتابه الكريم ، ويعززه الذكر الحكيم ، وبه يحق لمن تحدث باسم الإسلام أن يتحدث ، لا بغيره ، والسلام على من تدبر واهتدى .

١٩٤٩/١٢/٢٠

الحق أمام الواجدين

وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ .

رأينا الهدى القرآنى يتناول مشكلة المال فى جلاء وحزم ، ويضع لحلها أسسا واضحة ، لو صدقت النية ، وواتت العقيدة على الانتفاع بها لكانت حلا سليما عمليا . طيب الأثر .

رأيناه فى حكمته يقيم كل تدبيره للنفوس ، على أساس من فطرتها ، فيروضها رياضة العليم الحكيم . . يعترف بغريزة التملك ، ويدع الناس يملكون ويحرزون ، فى غير جشع ولا نهم ، ولا بخل ولا سرف فإذا ما افترقت بهم السبل ، واختلفت الأحوال ، فكان فيهم الواجد المالك ، إلى جانب الفاقد الخالى ، تولاهم بالرياضة المدبرة ، توقيهم أخطاء هذه الفروق ، وأثار هذا الاختلاف ، حتى ما يضطرب كيانهم ولا يتزعزع وجودهم ، ويهتز بنيانهم .

وهنا يروض القرآن الواجدين المقتنين رياضة مصلحة ، جملة الأمر فيها ما يلى :

أنهم حين يملكون هذا المال إنما يمسكونه على ملك الله ، الذى آتاهم المال ، واستخلفهم فيه ، فعليهم إذا ذاك أن ينفقوا منه ، كإنفاق الشخص من مال غيره ، ليفوا بحق الله ، الذى هو فى لسان اليوم حق المجتمع .

ورأيناه مع هذا — يروض الفاقدين رياضة أساسها هو :

تقرير حقهم فى مال الله ، واعتراف المالكين بمالهم فيه من حق ؛
وحض المحرزين له على إيتائهم إياه من مال الله :

تلك هى جملة ما قررنا من هدى القرآن فى مشكلة المال . من مشكلات الاجتماع . . ونريد لنسمع من هذا الهدى نفحات من هذه الرياضة للواجدين المالكين ، لنلفتهم إلى الانتفاع القلبى والعملى بهذا الهدى المصلح للحياة ، الواقى من شرورها ، الضابط لجموح النفوس وركوب أهوائها . ، ولعل هذا الهدى الروحانى يجد سبيله إلى القلوب المؤمنة والنفوس الخيرة . فيحقق الأثر المرجو ، من الدين والتدين ، فى حفظ سلام النفوس ، وأمن الجموع وطمأنينة الأمم ، فيكون الدين بر هدى الحياة خيراً كثيراً . . وَاللهُ يَهْدِي لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ .

* * *

وإذا ما جرى الحديث من هدى القرآن ، فى تلك الشئون العملية الحيوية ، فإنه ينبغى مع ذلك تقدير جهاد العقل الإنسانى المستمر ، المتجدد فى سبيل إصلاح تلك الشئون ، بهذه العلوم والمعارف والتجارب التى خاضها العقل ويخوضها ، فى سبيل تقرير الحقائق ، وكشف المنافع ، واجتناء الفوائد ، ولا بد من الانتفاع بذلك كله ، ولا سيما فى الترتيب التفصيلى ، والتدبير التطبيقى ، فى تنظيم الحياة العملية ؛ لأن هذا الهدى القرآنى إنما يمس فى هذا وغيره من أمر الحياة الأصول الكبرى والأسس العامة ، والتوجيهات العليا ، التى يعطى القرآن جملتها — كما تكرر ذلك — ليحث العقل البشرى على التدبير الدقيق والتقدير الصحيح ، للمتجدد من شئون الحياة ، ورعاية الفروق ، فى ذلك ، بين الأزمنة والجماعات ، والبيئات والثقافات . . وما يتصل بذلك كله . . فلن نلتمس هنا التنظيم التفصيلى ، والشرح الجزئى ، من هذا الهدى القرآنى . . كما لن نهمل فضله الاجتماعى ، فى تقرير الأصول ، وإعداد النفوس . . وعلى هذا الوجه ، دون غيره

— فيما نعتقد — ينبغي أن يكون الانتفاع بهذا الهدى الروحي الوجداني ، المؤيد بالعقيدة الباعثة على العمل ، والثقة الكافلة للنجاح ، دون إلزام الحياة بأوضاع زمان غير زمانها ، أو أخذها بتفصيلات ، قد اهتدى إليها تفكير كان مستواه غير المستوى الآن ، وعن خبرة غير الخبرة الحاضرة ، وظروف غير ظروفها . . فعلى هذا الوجه يتعاون الوحي والعقل ؛ وينتفع بهدى الدين ، وتجربة العلم ؛ ويطمئن أصحاب العقول القوية ، والشخصيات العلمية ، إلى هذا الهدى النفسي الاجتماعي ، في غير غضاضة على عقولهم ، ولا مخالفة لمحدث معارفهم ، مهما يكن رقيها ، وفي غير خوف من لاهوتية غيبية تسود التفكير الديني حينا ، ويستطيع هذا القرآن أن يخلص منها تماماً .

* * *

والحديث عن الهدى القرآني يلوذ دائما ، كما يرى القارىء في كل مانشير منه ، بالحس الفني لهذا القرآن يستشف منه تلك الاتجاهات النفسية واللفتات الفنية ، التي تتميز بها عباراته ، وممجز نظمه ، وخصائص أسلوبه ، التي تجدها القلوب المستروحة ، والوجدانات الرقيقة ، والأفئدة المتسامية ، شاعرة بأن هذا النفحات القدسية ، في رياضة الأنفس ، وتوجيه الناس هي من خير مايعتمد عليه ، وينتفع به ، في هذا المجال ، لما يحفه من الارتياح ، ويحوطه من الاطمئنان ، حين يمس شغاف القلوب ، ويثير الأحاسيس الكريمة فهو بهذا أفعل من اللفت الجهير ، والصدع الصريح ، والقانون الآمر ، والقوة المنفذة ، والسلطة المراقبة ، وتلك هي سمة الروحانية الفنية ، في هذا الهدى ، ومعنى الخلود فيه ، ومبعث مايرجى من نفعه للحياة ، مهما يكن تجددها ورقيها وإلى أي أفق سما صرحها ، وتعالت مثاليتها الطامحة ، لأن المرامي الاجتماعية ، في هذا النص القرآني تستطيع أن ترضي وجدان المؤمن ، وتأمل الفيلسوف وتجربة العالم جميعا .

ومن نسمات هذا الحسن الأدبي مانشير هنا إلى بعضه في تدبير ضمائر

الأغنياء والمالكين بما يرققها . إذ نجد الكتاب الكريم يتحدث إلى أولئك الواجدين عن الزكاة والصدقة التى يوجب عليهم تأديتها . فنرى فى هذا الحديث الكثير الورود فى القرآن لمسات ، من تلك لانعنى بغيرها فى الحديث من هدى القرآن . وذلك الذى نشير إليه هو موضع العناية كل العناية فى التفسير الأدبى للقرآن .

* * *

فاستمع إليه حين يحدث كثيراً عن أداء هؤلاء الواجدين لما عليهم من واجبات الزكاة ، فيستعمل فى ذلك كله كلمة من الإيتاء . . . لايغيرها فى بضع وعشرين مرة : استعمل فيها مادة واحدة ، هى آتى لم يغيرها على كثرة ماقال عن الزكاة ؛ فتراها فى صور متعددة : أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . . وأقيموا الصـــلاة وآتوا الزكاة . . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة . .

وتقرأ هذا فتسأل : هل للكلمة حس فنى خاص . يجعل استعمالها موحيا بشعور نفسى يجده من ينصت لهذا القرآن المعجز ؟

وإذا الجواب عن هذا السؤال : نعم . . لأنا نؤمن أن استعمال القرآن من الدقة والرقة . بحيث يلتمس صاحب الفن ملحظا فى كل كلمة منه . وفى كل حرف بل فى كل نبرة من نبراته . . فماذا يجد الحس الفنى من مادة الإيتاء التى إلتزم القرآن إستعمالها فى الزكاة هذا الاستعمال .

إن المادة ترجع فى أصل معناها جملة إلى الاستقامة فى السير ، والسرعة فى السير ، والسرعة فى العطاء ، كما أن منها المجىء بسهولة ، ومن هنا تحس إيحاء التعبير القرآنى حينما يخصها بالتعبير عن أداء الواجدين لزكاة أموالهم ، حين يؤدونها لأصحاب الحق فيها . . ويؤدونها من مال الله الذى آتاهم ، وينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، فما أقوى أن يشعر التالى المتأمل من قريب وفى قوة : أن الحرص على استعمال هذه المادة فى أداء الزكاة إنما هو

التعبير عن إعطاء فى سرعة ، واتجاه إلى الاعطاء ، يتم فى سهولة والسير فيها على أنفسهم . وهو الأداء الذى يتحقق به المعنى الإنسانى الحيوى ، الذى فهمه المفسرون الأقدمون أنفسهم من آية : وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه — وهو : أن ينفقوا كإنفاق المرء من مال غيره . . وهكذا تتم الإشارة العبارة . . ويكمل التلميح التصريح . ويسود هذا الجو الاجتماعى الكريم ، فى رياضة القرآن للسالكين ، ودفعهم إلى الإعطاء السمح الرضى السهل السريع . . فى الزكاة . وفى كل إعطاء من الواجد لغيره . فما يشعر معه أنه منفضل ، ومعط ، وذو يد عليا ، وينتفى ذلك الشعور فى نفسه كلما زكت روحه ، وسمت نفسه ، وهو بذلك يلفت غيره ، وينبه من ليس له كبير حظ من هذه الرقة فيكون ذلك هو الشعور الشامل ، والنغم المتسق ، فى حديث القوم عن الاعطاء . .

وهو ما أحسب أنك تجد أثرا له فى تعبير من عاشوا فى البيئة ذات الصلة بالدين ، إذ تسمع أحدهم لا يقول فى حديثه العادى . أعطيت . . ولكن يقول حين يعطى : أعطاه ربنا ما أعطاه . . والمصغى لهذا التوقيع القرآنى المرنم يجد هذه المادة تستعمل فى مناسبتها ، من غير الزكاة كقوله : فى بيان البر :

وَآتَى الْمَالَ — عَلَى حُبِّهِ — ذَوِي الْقُرْبَى — الآية :

إذ يكون الإعطاء السهل السريع ، مع حب المال عملا نفسيا كريما ، ويكون الإيتاء بهذه الصفة للمحبوب مبينا البر خير بيان .

* * *

وأحسب قارئا واعيا ، ومرتلا يقظا يذكر أنه مع استعمال القرآن للإيتاء فى الزكاة قد استعمل فيه غيره كذلك ، فى مثل قوله :

« قَدْ أَفْلَح المؤْمِنونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ »

فلم يذكر الإيتاء ، بل ذكر الفعل ، وفيه معنى القوة والفاعلية ، ولاسيما مع اسم الفاعل ، والجملة الاسمية ، فلعل لغير هذا الإعطاء السمح السهل قصدهنا؟

والجواب كذلك . . نعم . . فهذا سياق كذلك عام ، إذ يجرى الحديث فيه عن دلالة الفعل على فاعله لا عن حال متلقيه ومتقبله — إنه يحدث هنا عن العمل بما يحقق أثره فيمن صدر عنه ، إذ يصدر كاملا تام القوام ، فالصلاة المؤدية لفلاح المصلى هى صلاة سليمة الجوهر ، وهو الخشوع ، الذى يفرغ به المصلى لموقفه . . والزكاة المؤدية للفلاح هى زكاة المقدم الفاعل فى أدائها ، دون تراخ ، ولا تهاون ، أو تباطؤ فى ذلك الأداء

وينتهى من هذه الفاعلية فى الأداء إلى ما أوحى به الإيتاء تماما ، فالإيتاء إعطاء سمح ، سريع ، سهل على النفس . . وليس ذلك إلا عن الأداء الجاد الفاعل ، يحقق السرعة والاستقامة . فتكون السهولة والسماحة ، التى يشعر بها الإيتاء .

وتستروح أيها القارىء الواعى من هدى القرآن دائما روح هذا الجو الذى تمطره الرغبة الخيرة ، المقبلة ، على الإنفاق من مال الله ، الذى آتاه منفقيه ، إنفاق المستخلفين فيه ، فهم يؤتون فى سهولة ويسر ، على نفوسهم وفى إقدام وإقبال ، مسرع يخف إلى هذا الأداء ، فهو أداء فاعلين جادين ، بلا تردد ، ولا شح . ولا بطء ، وهم الذين لايعرفون سيئات الاحتيال على الزكاة ، بمثل ما قال وفعل أولئك الفقهاء ، المنتسبون إلى الدين ، فأعطوا الزكاة بجهلة مخفاة ، واشتروها من الآخذ بثمن ما يرى أمامه ، دون انتباه إلى ما فيها ، فخادعوا الفقير — بما أنفر من أن أذكره أو أشرحه — وهم يحسبون أنهم يخادعون الله . . وهو خادعهم . . وأولئك هم آفة الدين التى ضيعت على الدنيا خيره ، وشوهت عند الناس صورته .

فاللهم ربى . . ما أحكمك . . ثم ما أحلمك . . ما أحكمك إذ أرسلت إليهم هذا الهدى الإنسانى الاجتماعى ، يصلح كيانهم ، ويصون وجوههم . . ثم ما أحلمك عليهم حين تحايلوا فأضاعوا حكمة هذا الهدى والنور . . وضيعوه على من حولهم . ومن بعد عنهم ممن عرف الإسلام ، من أهل الدنيا ! ! ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة .

فياقوم . . خذوا أنفسكم بهدى هذا القرآن ؛ فى مواجهة مشكلة المال فى حياتكم ، وأحسنوا إفادة حياتكم بما فى الدنيا من خير وبر ، وطمأنينة ورضا ، قام عليه هذا التدبير الحكيم فى حل مشكلة المال . . أدرككم لطف الله فيما تبغون .

١٩٥٠/١/١٧

الإصلاح الجاد ... أخذ

يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

أنسنا إلى مافى القرآن من توجيه اجتماعى نفسى . فجعلنا نلتمس أصول هديه فى مشكلات الاجتماع . . ومشكلة المال فى الحياة ، وحظوظ الناس منه هى كبرى تلك المشكلات . أو فى طليعة كبرياتها .

وقد سمعنا من هدى القرآن . ومبادئه . فى حل تلك المشكلة ماسمعنا من : إن مال الأغنياء مال الله . يمسكونه على ملكه . وإن للفاقدين حقا معلوما فى هذا المال . ثم جعلنا نلتمس اللمحات الفنية فى نظم هذا الهدى الحكيم . حول هذه الأسس الكبرى . فرأيناه يروض الأغنياء دائما على الانفاق مما فى أيديهم ، مما أتاهم الله ، ومما رزقهم الله ، إنفاق المستخلف فيه ، الوكيل عنه ، كأنما ينفق من مال غيره .

ثم رأيناه يحدث عن أداء هؤلاء الواجدين لما فى أموالهم من حقوق ، فيعبر عن هذا الأداء بأنه إيتاء ، أى إعطاء فى قصد مستقيم ، إلى ذلك الأداء مع سهولة ويسر ، ويبين لهم أن روح هذا الأداء ، المحققة لفائدته ، والإصلاح به هى أن يؤتوه ، فى اقدام فعال راض ، مقبل ، مرتاح .

وبهذه المرامى الاجتماعية ، التى يومىء إليها صوغ التعبير القرآنى ، مع الذى وجه إليه من أصول وأسس ، يكون للدين ما يرجى منه ، من الأمر فى

إصلاح الحياتين ، وتحقيق السلام النفسى للفرد والأمة ، فى هذه الدنيا ، وتهيئة لدار السلام للمؤمنين ، المؤدين لهذه الواجبات فى الحياة الآخرة .

والآن نريد أن نتابع تنسم هذه الأنسام العاطرة ، من جو القرآن الروحى ، فى لطف نسجه ، وإبداع صوغه ، فنحس لألفاظه إيحاءها ، وندرك وقعها على الأنفس الحساسة ، ونلمح ماترنو إليه من لفتات مثيرة تبدو للقلوب الحية صوراً ، واضحة الملامح ، بينة القسمات .

وكذلك نطمئن دائما إلى أن هذا القرآن يعطى ذلك التدبير العملى والتنسيق الاجتماعى بما هو بيان ، وكتاب مبين ، ويمنح معه التوجيه القلبى والاتجاه الروحى ، بما هو نور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . . وما أشد حاجة الناس إلى مايثير عقولهم لتقبل الفكر ، ويطمئن نفوسهم ، مع ذلك للامتثال حين يلقى إليهم بالأمر . وذلك هو ما نظفر به خاصة ، فى اللفت الفنى للقرآن ، والاتجاه الروحى منه ، ففى أضوائه وأنواره مواضع للقوة والجمال . فى التنسيق الاجتماعى ، تجعل من يوجه إليه يتقبله راضياً ، ويقبل عليه واثقا ويمارسه مطمئناً .

* * *

هذا القرآن يتحدث إلى المديرين لشئون الجماعة فى المال ، كما تحدث إلى المعطلين للجماعة حقها فى هذا المال ، فإذا هو يقول :

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»

وتصيخ لأقوال المفسرين السابقين أنفسهم فاذا فيها معان صالحة خليقة بالانتباه والتدبر ، فهم يقولون مثلا :

« إن الصدقة المأمور بأخذها هنا من أولئك القوم هي : غير الزكاة المفروضة .

إن الرسول قد أخذ ثلث أموال هؤلاء الناس المتحدث عنهم[1] ، من المعترفين بذنوبهم ، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء[2] .

وهذا القول إلتفات إلى سعة الحق ، في أحوال الواجدين ، ووفائه بحاجة المجتمع . . ومما يقول هؤلاء المفسرون القدامى أيضاً في معنى الصدقة[3] . إنها من الصدق ، إذ هي دليل على صحة إيمان المؤتي ، وصدق باطنه مع ظاهره ، وأنه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات . . .

وهو تفسير يتفق مع الحس الراقي والادراك الاجتماعي السليم ، بأنهم دائماً يأخذونها على أنها حق الله ، لا على أنها تفضل ، ومنحة ، وعطية ، من الواجدين ، ومن يد عليا ليد سفلى ؛ ونلمس هذا المعنى واضحاً بيناً فيما نسمعه من آثار يوردونها في هذا الموضع ، كقولهم : إن الصدقة تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل ، وما من عبد تصدق بصدقة إلا وقعت في يد الله ، فيكون هو الذي يضعها في يد السائل .

وأي غضاضة فيما يتلقاه كف الرحمن ؟، وأي بأس على الآخذ في تلقي مال الله ، من كف المعطي الجواد ، الوهاب ، الرزاق مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام .

تلك وما إليها معان اجتماعية ، تقر الحق لأهله ، وتحمي عزة الإسلام وكرامة الآدمية ، التي كرمها الله ، وفضلها على كثير ممن خلق تفضيلا .

---

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — القرطبي — الجامع لاحكام القرآن — جـ ٨ ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ط دار الكتب المصرية

وما هذه المرامى الاجتماعية إلا لمحات يومىء إليها ، ويدل عليها ، صوغ العبارة ، ويشير إليها النظم ، تلك الإشارات المنبهة للقلوب الخافقة ، والوجدانات المحسة . .

وهى — كما تجد — بعض اتجاه هاتين الآيتين الكريمتين ، بل طرف من إشماع وامض لمفردات ألفاظهما .

* * *

وإن المتدبرين هذا الكتاب الكريم ليلتمسون ما وراء هذا من لفت النظم القرآنى ، ويستبينون الحس اللغوى لكلمه ، ويستشعرون وقع لفظ تكرر فى الآيتين وهو الأخذ . . فى قوله خذ من أموالهم ، وقوله ويأخذ الصدقات ؛ إذ أمر المدبر لشئون هذه الجماعة ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فى حينه ، ثم أصحاب ذلك فى الأمة بعده ، فهو خطاب خص به النبى لفظاً ، وشركه فيه جميع الأمة معنى وفعلا [1] .

ووصف الله تعالى بأنه هو : الذى يأخذ الصدقات . . وهذا وما إليه من صنيع القرآن لا يجىء عفواً ، ولا يكون اتفاقا ، بل هو روح المعنى ، ونفحة من سر الصياغة . يلتمسه الشاعرون بروعة الفن القولى فى القرآن .

وذلك أنهم : يجدون الأخذ فى اللغةهو : حوز الشىء وتحصيله ، حوزاً قوياً جاداً ، لا تهاون فيه ، ويجدون القرآن يستعمل لفظ الأخذ هذا فى مواطن الحوز الجاد ، فهو يستعمله فى الميثاق ، لأنه موثق ورباط ، فيقول : « إن أباكم قد أخذعليكم موثقا . . ويقول : ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل. ويقول : وإذ أخذنا ميثاقكم .

وهو يستعمله فى مواطن القهر والعنف فيقول : فأخذتهم الصاعقة . . فأخذتهم الصيحة . . والرجفة ، ويقول : فأخذهم أخذة رابية .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

وهو يستعمله مع التحصيل القوى فيقول : خذوا ما آتيناكم بقوة .

ويقول : فخذها بقوة . . ويقول : خذها ولا تخف .

ومن كل أولئك نشعر فى مادة الأخذ بأنها التناول الجاد، الحازم، القوى، نحسه واضحا فى مثل قوله : وليأخذوا أسلحتهم . وليأخذوا حذرهم . . فيؤخذ بالنواصى والأقدام . . فنستشف هذا الجد المتناول ، من مثل قوله : خذ العفو ، وأمر بالعرف . . وقوله هنا ، خذ من أموالهم صدقة . . كما ندرك إيثاره وصف فعل الله المؤكد فى الصدقات بقوله : إن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات .

* * *

وقد رأيناه قبل ذلك حين يأمر الواجدين بالإعطاء ، أو يصف عملهم فى إعطاء المال يؤثر فى ذلك لفظ « الإيتاء » لأنه على ماسبق ، إعطاء قاصد ، فاعل سهل ، ميسر . . وأما المتقبلون ، والمتلقون ، المحصلون فيؤثر فى عملهم لفظ الأخذ ، الذى هو تناول ، جاد ، قوى ، حازم .

وتلك هى نفحات الفن القرآنى تمس حقائق الأوامر ، ولباب الأفعال وهى روحها ، وموضع التعبد منها ، ومعقد الفلاح لها ، وعندها ينبغى أن يقف المتدبرون لهذا الذكر الحكيم ، لأنه جدير بمعنى التدبر والتعقل .

* * *

إنما يريد القرآن حين يضع ما نتعرفه من حلول لمشكلة المال فى الاجتماع أن يؤتى المؤدون لحق الله ، الذى هو حق الجماعة فى المال إيتاء . . وأن يأخذ المدبرون لهذه الحقوق أخذاً لأن طبيعة هذا الجانب من الحياة على مثل هذا الحس الشاف ، والفعل الحازم ، ولأن الحاجة فيه ناجزة ، لا تحتمل التأخير ، عاجلة لا تطيق الإبطاء ، ملحة لا تحتمل التسويف ، لأنها حاجات ضرورية، متجددة، نامية، دائمة ، قاهرة ، يفسد التدبير [illegible] بالتهاون

وحين تتوانى ، أو تتأخر وتمهل تفقد أثرها ، وتضرى بذلك قسوة الحاجة فيضطرب الأمر . ويضيع كثير ما يبذل بعد فوات أوان إيتائه . وقد كان فى حينه أدفع للحاجة ، وأرضى للنفوس وأنفع للجماعة ، والفرد جميعا .

* * *

فياقوم : هذا مجتمعكم تكاثر مافيه من موضع الحاجة إلى الاصلاح الجاد ، فهل يلفتكم هذا الإيحاء وينبهكم هذا التذكير ، ويحثكم هذا الهدى ، فيؤتى المؤتون حق الجماعة باسم الله . . ويأخذ المدبرون فى جد . ما يسد هذه الحاجة ، يضعونه فى موضعه ، ويصرفونه فى مصرفه ، مهتدين بالهدى العلوى الحكيم ، الذى كرم الآدمية . وقرر الحق ، ووجه للحق . وأرشد للتدبير ، وقرر الأخذ بما دفع إلى التفكر . وأمر بالنظر ، وحض على الاعتبار ، وحذر العقبى .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ، لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

١٩٥٠/١/٣١



حق .. لا إحسان

« إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »

أريد لأتابع القول، أتبين رياضة القرآن لنفوس واجدى المال، ونفوس فاقديه جميعاً، ملتمسا المرامى النفسية، والأهداف الاجتماعية، من كلمات القرآن، وجمله، لما عرف فى ذلك النظم من إعجاز بلاغى، وفن قولى، قد رأينا له من البقاء الخالد والحيوية المتجددة، ما يجعل هذا الفن القولى مصدراً لمثل هذا الهدى النفسى والاجتماعى، الذى تصلح به الإنسانية مهما يكن تقدمها العلمى والعملى.

وقد عرفنا للاسلام روحا جادة، فى الإصلاح المالى، وحزما ماضيا، توحيه عبارة القرآن، فى أمره أصحاب التدبير العلمى للحياة، والقائمين على هذه الناحية، بأخذ المال المطهر أخذاً جاداً. وما إلى ذلك من لفت إلى عدم التوازن فى هذه الناحية.

وكان مما لحنا من أقوال المفسرين الأقدمين أنفسهم لآية: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا: قول بعضهم: إن المال المأخوذ أكثر من الزكاة المفروضة. وإن الصدقة من الصدق، لدلالتها على صدق الايمان، وإنها إنما توضع فى كف الرحمن، وهو يضعها فى كف آخذها. وفى ذلك ما ترى من تكريم للإنسانية، وصون لشعورها.

وقد اتفق أن وقعت إلى فى صباح اليوم التالى، لإذاعة هذا الحديث صحيفة دينية، فيها كلام عن مسألة المال فى الإسلام. فقرأت فيها ما عبارته:

« .. هذا القدر من الزكاة وهو ٢٫٥ ٪ قد يكون قدراً ضئيلا، ولكن هو القدر القانونى، وبجانب ذلك القدر الكبير الأخلاقى، وهو الذى سمى الإحسان، وهذا لا حد له وإنما هو موكول إلى ضمير الشخص وخلقه،

وعطفه ، وميوله الدينية والخلقية ، التى يحاول الإسلام أن يغرسها وينميها باستمرار »[١].

ولفتتنى فى هذه العبارة أشياء ، مثل كون القدر القانونى لحق الأمة فى مال الواجدين هو ٢ر٥ ٪ فقط ، وأن الحكومة لا تملك أن تفرض إلا هذا ؟!

ومثل أن الحياة المالية فى الإسلام ، على أهميتها وحاجتها إلى الاستقرار تكون تحت رحمة الأفراد ، وعطف ضمائرهم ، وما ينميه الإسلام من ميولهم الخيرة التى يحاول تقويتها باستمرار !!

لكن هذه المعانى لم تلفتنى ، كما لفتتنى كلمة الإحسان ، وتسمية المال المأخوذ للجماعة ، مهما تكن صفته ، إحساناً ، أى إنعاماً وتفضلا ، يحببه الاسلام للناس ، بتسميته هذه التسمية ، وكنت — كما قلت — حديث عهد بما ألقيت ، من التوجيهات النفسية الاجتماعية فى القرآن ، حتى من قول المفسرين الأولين . . ورحت أسأل نفسى : أحقاً هذا هو تقدير القرآن للعامل النفسى ، والشعور الانسانى فى إصلاح المجتمع ؟

أحقاً هذا هو حس القرآن الفنى ، فى خطاب الناس عن الشئون المالية ، الحساسة فى حياتهم ، المثيرة لنفوسهم ؟ .

أحقاً هو يحبب الآخذ لهذا المال بأنه إحسان منعم ، وإعطاء متفضل ، وينسى ما لذلك التعبير من وقع سىء ، وأثر ضار ؟!

سألت نفسى هذه الأسئلة ، وأنا دائماً شديد الاعتماد ، على هذا الحس الفنى ، للنظم القرآنى ، أجد فى التذوق اللغوى للكلمة ، والاعتبار الأدبى

---

(١) هى مجلة (رسالة الاسلام) السنة الثانية العدد الاول ، من مقال عن النظام المالى (للمرحوم) الاستاذ أحمد أمين .

لما فى نظم العبارة ، ما أعده مصدر توجيه على دقيق ، بل خطير . . ولذلك كان أسرع ما اطمأننت إليه فى الإجابة عما أثارت عبارة هذه الصحيفة الدينية فى نفسى من الأسئلة هو : ما هدى إليه هذا الحس من أن الإسلام عامة ، والقرآن بخاصة أدق حساً ، وأسلم تقديراً من أن يسمى هذا الحق الاجتماعى إحساناً ، أو تفضلا ، أو إنعاماً ، أو ما هو من ذلك بسبيل ، لأن هذا القرآن هو الذى جعل من المال حقاً . وجعله حقاً معلوماً ، وهو الذى سمعنا تسميته المال : مال الله ، كما سمعنا عده الأغنياء مستخلفين فيه ، ينفقون منه مثل إنفاق الرجل من مال غيره . .

وكذلك مضيت ألتمس الإيحاء الفنى فى استعمال القرآن لفظة الإحسان فكان أن وجدت الأمر على هذا الوجه :

تقول اللغة : حسن الشىء جمل ، وأحسنت الشىء إحساناً جملته وكملته ، فإذا قلت : أحسنت إلى فلان فمعناه أوصلت إليه ما هو حسن ، وفى هذا قد يراد منه معنى الأنعام والتفضل ، أحياناً ،

فإذا ماتتبعنا القرآن ، فى استعمال هذه المادة رأيناه لا يكاد يريد منها إلا معنى الكمال والحسن ، حين يقول :

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ.

أو يقول :

فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .

وكذلك قوله :

إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا .

أو قوله فى الوصية بالوالدين :

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .

فيدل على مراده حين يذكر فى هذه الوصية الإحسان مراراً :

ومعاذ الله أن يكون فعل الولد مع الوالدين إنعاماً ، وامتناناً ، وتفضلا !

ويأمر القرآن بالإحسان فى آيته الجامعة :

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَالإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ ، وَالْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيِ .

فيذكر المفسرون لهذا الإحسان معانى كثيرة ، فهو تارة أداء المندوبات والمستحسنات .. أو أداء الفرائض ، والإخلاص فى التوحيد . أو هو أن تكون سريرة العامل أحسن من علانيته .. أو أن ينصف من نفسه ، ولا ينتصف من غيره ، حين يكون العدل إنصافاً وانتصافا ..

ويعرض الحديث النبوى لبيان الإحسان ، حين يسأل سائل الرسول عليه السلام ، ما الإحسان ؟ فيقول : هو أن تعبد الله ، كأنك تراه . . . فهو بهذا البيان إخلاص ، به يتم الأسلام والأيمان . . وهكذا لا يكون الإحسان هو التفضل المتن . . والإنعام المعطى . . وحتى إن قيل ذلك فى معنى الإحسان ، فليس هذا المعنى مما يستقيم به فهم معنى أمر القرآن بالإحسان فى آيته الجامعة : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ .. » .

* * *

وما إخالك بعد هذا واجداً فى حديث القرآن عن الحق المعلوم فى المال أنه يسميه إحساناً ، أو يأمر بالإحسان بالمال ، إلى كذا أو كيت ، بل

الإحسان فى عامة استعماله القرآنى هو : ضد الإساءة . وهو إحسان إلى النفس فيما سمعنا من آية :

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .

وكذلك ينفر الحس القرآنى ، الدقيق دائماً ، من أن يستعمل فى ذكر المال ، المصلح لحياة الجماعة ، هذا الإحسان بمعنى الإعطاء المتفضل ، والبذل المنعم ، والأداء المترفع المستعلى ، الذى يحز فى القلوب ، ويهيج النفوس ، ويفسد ما بين المؤمنين .. وإنما المؤمنون إخوة .

ولعمرى ، ما تخونت قط شعورى بالدقة السامية ، للحس الفنى فى هذا القرآن ، حين يتحدث عن هاتيك الانسانية ، التى كرمها الله تكريما ، بل يعمى هذا الإعجاز النفسى للقرآن قدما ، يرتفع نبيلا . ويسمو مرهفا ، يروض النفوس البشرية ، رياضة خبيرة دقيقة ، لطيفة ، حكيمة ، تساير هذه الإنسانية ، فى آفاق رقيها العالية . وتلفت المدبرين لأمور الجموع ، إلى الدقيق والجليل ، من هذه العوامل النفسية ، التى تدور عليها الحياة ، وتنبعث عنها الأعمال ، وتندفع بقوتها الإرادات . . وأدق الإصلاح وأكثره نجاحا ما قام على خبرة نفسية ، وطب بأهواء القلوب ، ونوازع الأرواح .

* * *

إن هذه الجمهرة من الناس ، التى يدعوتها العامة يشعرون شعوراً نفسياً قويا ، بتكريم الإنسان ، ويدخلون فى حسابهم ما سوى المادة ، وحسبنا أنهم يسجلون هذا فى مثلهم العامى القائل « لاقينى ولا تغدينى » ، وإن رعاية هذا الشعور فيهم ، والحرص على توفير الرضا النفسى لهم ، لما يجب أن يرعاه ويقدره كل من له صلة بالحماة العامة . وكم فى الحياة من مناسبات لذلك ، قد يكون أيسرها عمل تلك الصحيفة الدينية التى نقلت كلامها ، فى صدر هذا الحديث ، عن النظام المالى فى الإسلام ، وقيام هذا النظام على

ما تسميه هي الإحسان ، وهي التسمية التي رأينا أنها تسمية ، لا يهش لها حس القرآن .

وإن وراء ذلك من رعاية هذا الشعور ، ودلك الرضا لكثير وكثير ، فهذه الصحف مثلا حين تخوض في الوصف والتصوير لعبث القادرين ، وسفه الواجدين ، وبذخ الأغنياء ، في حفلات وحركات ، وسخافات لا تقدر ما في هذا من جرح لشعور تلك الكثرة ، وإفساد لرضاها النفسي يثير غضبها ، ويهيج حقدها .. ولو اشتغلت الصحف بغير هذا لأحسنت من نواحي كثيرة .

وهذا البذل الخير ، الذي تقدمه الهيئات أو الأفراد ليس ينبغي أن يذكر فيه فقر الفقراء ، وطعام الجياع ، وتعرض فيه تلك الصور المذلة . لجموعهم وهي تتلقى الأكلة . وتتسلم الخرقة . فذلك ولا شك مفسد للرضا النفسي . بل لقد يؤدي إلى شر وضر . دونه جوع الجائعين . وعري العارين . وأمثال هذه الإخطاء من القول والفعل غير قليل .

وحسبي أن أقول : إن الحس النفسي بكرامة الإنسانية . على ما رعاه القرآن كفيل بأن يوفر الرضا النفسي للآدميين . ويقدر ما لذلك من أثر في علاج مشكلات الاجتماع .

١٩٥٠/٢/٢٨

الاتزان

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » .

هذه الأحاديث عن مشكلة المال ، من بين مشكلات الاجتماع أبتغى منها ، وأرجو أن يبتغى المدبرون لذلك ، أن تحقق بعض ما للدين من أثر فى الحياة ، وسلطان على القلوب وطمأنة للنفوس ، وإقرار للسلام ، وإشاعة للوئام ، فيكون ذلك صماما للأمان ، وإبعادا للخطر عن هذه الجماعات الموفقة المؤمنة ، الطيبة القلوب ، النقية النفوس ، يوقيها ويلات الهزات الاجتماعية العنيفة ، ويصرف عنها أوهام الآراء الزائفة الساخطة ، الحاقدة ، ويدفع أولى الأمر أنفسهم إلى التفكير العميق ، والتدبير الجاد ، والتناول الحازم لهذه الشئون العملية ، والآفات الاجتماعية .

وقد سمعتم من هدى القرآن أحاديث عن جوانب من تلك المشكلة . . وهذا الحديث عن أصل عام ، وفكرة جامعة ، فى حياة هذه الأمة ، ترسى تلك الحياة ، على أساس سليم ، ومبدأ صالح ، يهدى إلى موضع القسطاس فى وجودها ، ويلفتها إلى الاستفادة من تجارب الدنيا قبلها ، والانتفاع بجهاد البشرية حولها ، فى سبيل التقدم والاستقرار . . وفى هذا تلونا من قول القرآن آيته :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً .

وفى تلك الكلمات القصار جوامع ما يشار إليه من موضوع هذا

الحديث، من هدى القرآن عن مشكلات ، الاجتماع . . فما الأمر الوسط ؟. وبم تكون الأمة وسطاً ؟ . . وما المعنى الجامع الذى يريده القرآن من الوسط ؟ . . وكيف تنتفع حياتنا اليوم بهذا المعنى ؟

وتلك أسئلة تؤثر قبل الإجابة عنها أن نستمع لما قاله المفسرون الأولون حولها .

وسنجد الكثير منهم قد شغل فى تفسير الوسط بمعنى من فلسفة الأخلاق، ومذهب لبعض فلاسفتها يرى : أن الفضيلة ما هى إلا وسط بين طرفين هما رذيلتان : فالكرم فضيلة ، هى الوسط بين طرفين رذيلتين ، هما : الشح والإسراف ؛ وهكذا تفسر كل الفضائل على نحو ما جاءهم من اليونان ، وغيرهم ، من أصحاب هذه الفلسفات .

وهو مسلك فى فهم القرآن لا أهتم له ، ولا أعبأ به ، رغم خلابته وبريقه : بل أوثر فهم الكتاب الكريم فى حدود المعنى اللغوى ، الذى عرفته العربية ، عند نزول القرآن ؛ ثم أقبل ما يحتمله هذا المعنى فى أصله اللغوى ، ومعدنه العربى ، من حقائق . هى فى نظرتها أفضل عندى وأولى ، من ذلك كله ؛ بل هى أبقى وأخلد ، وأفسح أفقا ، من هذه المعانى المتكلفة المستعارة المجتلبة .

* * *

على أن فى المفسرين القدامى أنفسهم من عنى بالمعنى اللغوى لكلمة « وسط » ، واستقصاه . فبان له : أن الوسط هو الخيار ، وصفا بالاسم . . ثم بين من هذا أنه إنما جعل الخيار وسطاً ؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل ، وأما : الأوساط المحمية المحوطة فلا . ويورد هذا القول فى

عبارات أدبية [١] .

كما كان منهم من وقف عند هذه الآية ليتبين وجه التعبير فيها بالوسط في وصف الأمة ، بدل التعبير بلفظ الخيار ؟ . فلحظ أن الآية قد ختمت بتعليل لوصف هذه الأمة بالوسط ، هو : أن تكون شاهدة على الناس ؛ فقال : إن وصفها بالوسط يناسب هذه الشهادة ؛ لأن الشاهد على شيء يكون عارفاً به ، ومن كان متوسطاً بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب ، وثانيهما من الجانب الآخر ؛ أما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر [٢] . . وهذا جهد في الفهم ، لكنه ليس آخر ما يقال في الآية .

وبعض المفسرين ، حتى من عنى منهم بمعنى الوسط لغويا ، إلى بيان الوسط الفلسفي العقلي ، مفصلين في ذلك ، أو مجملين ، فينتهون إلى أن : مابه صارت هذه الامة وسطا ، هو أنهم ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعليل المفرطين ؛ وهم كذلك في العقائد ، والأخلاق والأعمال ؛ ويبينون غير قليل من العقائد والأعمال والأخلاق ، على أن الخير فيها والصحيح هو الوسط ؛ ففي العقيدة مثلا يذكرون أن نفي الألوهية تعطيل ، وإثبات الآلهة الكثيرة والشريك تشبيه ؛ والصحيح إثبات الإله الواحد . .

وفي الأعمال مثلا يقولون : إن الشدة إلى حد تحريم الطيبات في بعض الديانات مذموم ؛ والتساهل ونفي التكليف مذموم ، والوسط المعقول ، هو الصواب . .

---

(١) الطبرى ج ٢ والزمخشرى ج ١ فى تفسير آية البقرة المذكورة هنا

(٢) محمد عبده فى تفسير المنار ج ٢ ص ٣

وفى الأخلاق يجدون القرآن قد ذكر الوسط غير مرة ، إذ يقول :

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً
الفرقان :٦٧

ويقول :

وَلاَ تَجْعَلْ يَدكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُورًا . الاسراء : ٢٩

وحين يأمر القرآن بالعدل يمضون متوسعين فى تفسير العدل بهذا الوسط ، ويجعلون منه العدل الفردى ، والعدل القضائى ، والعدل العملى ، حتى ينقلوا الكلمة المشهورة : بالعدل قامت السموات والأرض . فيجعلون هذا العدل ميزان كل شىء ، حتى العناصر والأبعاد فلو لم يكن ذلك كله متعادلا متكافئاً لانقلبت الطبائع ، واختلت مصالح هذا العالم [١] .

ونكتفى من هذا كله بجملة معنى الوسط ، وأنه تعادل ، تاركين ماوراء ذلك من غموض فلسفى عميق ، ونتناول الأمر بالحس اللغوى ، والذوق الأدبى للقرآن ، فنرى مادة — و س ط — قليلة الاستعمال فى القرآن ، فلم ترد فيه لفظة «وسط» إلا هذه المرة ، ونشعر من ذلك بدقة معناها ، وبخاصة حين توصف بها الأمة فى قوله : هذا «جعلناكم أمة وسطا — ونحس من المقام أن الحديث عن صلاحية هذه الأمة ، واتساق أمرها . والوسط مركز التعادل ، فيمكن من هذا أن ندرك أن المراد من هذا الوصف أن فى هذه الأمة اتزاناً واتساقا ، وقد فهمنا من فلسفتهم التى أوردوها معنى التعادل ،

(١) الفخر الرازى . التفسير جـ٥ ص٣٤٦ ، ٣٤٧ط الشرقية سنة١٢٣٤

فتر تاح إلى أن جملة المراد ، من الأمة الوسط : أنها جماعة متزنة ، متسقة ، متعادلة ، ويدفعها إلى هـذا الأمر أن مكانها فى الحياة بعد الأمم السابقة بتجاربها ، وبعد تقدم الحياة وتدرجها . وتعينها على هذا التعادل رسالة هى آخر الرسالات .. وما إلى ذلك من أخذ لهذه الأمة بمسايرة الترقى، وتمكينها من الانتفاع بما تستطيع الدنيا الوصول إليه من تقدم ورقى . . وبكل أولئك ندرك وحدة الحياة المدنية والدينية ، واتجاه سيرهما فى التقدم إلى هذا الاتزان . . . ونقدر أن هذا الاتزان المعدل هو الأصل والأساس الأول ، والأمر العام الذى يهدى القرآن الحياة إلى ابتغائه .

* * *

من هنا يمكن الالتفات إلى عناية القرآن ببيان الوسط ، أى الاتزان ، فى المال فإذا هو كما سمعنا يحدث عن إنفاق الجمع المتزن بقوله :

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا .

ويتحدث عن إنفاق الفرد فيقول :

وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .

فيلفتنا بذلك إلى أثر هذا الاتزان فى علاج مشكلة المال ، وإلى الانتفاع بهذا الاتزان فى حلها ، ودفع مضارها ، بالتماس هذا الاتزان ، والحرص على تحقيقه ، حرصاً على سلامة حياة الفرد والجماعة . فكذلك ينبغى أن نكون دائماً أمة وسطاً ، وتكون جماعتنا فى ذلك وأفرادنا سواء . . نبتغى هذا الاتزان فى حياة الأفراد والجماعات جميعاً . . لا تسرف الجماعة ولا تقتر ، ولا تغل يد الفرد ولا تبسط .

* * *

وإنا لنجد سر قوة المعنى القرآنى ، من نظم الآية بوصف الأمة نفسها بالوسط ، إذ فى هذا الوصف لفت كاف إلى الوحدة الاجتماعية ، وقضاء على التفكير الفردى ، الذى لا يهتم فيه الفرد إلا بذاته ، وينسى ما عداه ، وهو ما يفسد فينا كل شىء ، ويضيع به كل خير . . لأنه نسيان لحقيقة كبرى، هى أن الفرد لا وجود له إلا فى جماعته وبجماعته ، وأن الجماعة لا قوة لها ، ولا كرامة إلا بفرد صالح قوى متزن .

* * *

وأمامنا ما يجرى اليوم ، فى حياة الأمم القوية ، وأن سر القوة فيها ليس إلا تحقيق أن تكون الأمة وسطا ؛ ورأينا من هذه الأمم من ترقب هذا الاتزان ، فى حياة أفرادها إلى حد أن تشرف عليه فترصد سير أعماله ؛ وتلزمه بتغيير اتجاهه غير الناجح ، غير تاركة أفرادها للصدفة والحظ ! ! فهل نقدر أن ما يجرى فى حياة الأمم المتقدمة حين تدبر لحياة الأفراد وتتدخل فى شئون معيشتهم ، كما كان الرجل الفرد فى الماضى يدبر لمعيشة أسرته ، فيختزن لها حاجة العام من طعام وشراب . وذلك التدخل من الدولة ليس إلا ما يجب عمله لتكون الأمة وسطا ، كتلك الأمة التى أراد القرآن بهديه أن يجعلها كذلك

يا قوم . . لقد مضى الزمن الذى كانت فيه مهمة مدبرى المال فى الحكم أن يدبروا لاتزان ميزانية الحكومة ، وملء خزائنها ، وجاء الزمن الذى ألزم مدبرى المال فى الحكم، بأن يدبروا لاتزان ميزانية الفرد ، وتعادل دخله مع حاجة حياته فى مستوى إنسانى ؛ وها نحن أولاء قد شعرنا بذلك حين عرفنا الاقتصاد القومى ؛ فهل نتولى مشكلة المال بإصلاح جاد، يرضى النفوس ، ويحقق اتزاناً للأمة يجعلها أمة وسطا ؟ ذلك ما يلفت إليه هدى القرآن ويتولى بيانه ، فى المال بخاصة ، لأن هذا المال عصب الحياة ، وقوام الوجود لذلك الوسط .

وهذاك الاتزان هو : الأساس الأول ، والفكرة العامة . التى أشرت

صدر هذا الحديث إلى إلتماسها من هدى القرآن ، فى حل مشكلة المال ، حلا يوقى الحياة ويلات الآراء الخاطئة ، وغضبات النفوس الحانقة . . فهل لكم إلى أن تصلوا تفكير الدنيا حولكم بالتوجيه الجامع لهذا الهُدى الحكيم ، وتلتمسوا ، بل تجدّوا ، فى سبيل هذا الاتزان لتكونوا أمة وسطاً . . ولا تكتفوا فى ذلك بالوعظ العام ، والإرشاد الكلامى ، بل تصيروا هذا كله إشرافا عاملا ، وتوجيها فعالا ، وتدبيراً منظما ، وواقعاً اقتصادياً تتزن به حياة الجماعة ، فلا تسرف ولا تقتر . . وكان بين ذلك قواماً ، وتتزن به حياة الفرد ، فلا يبسط يده كل البسط ، ولا يجعلها مغلولة إلى عنقه ، فيصلح الفرد بصلاح الجماعة ، وتصلح الجماعة بإصلاح الفرد ، وتكونون بذلك أمة وسطا.

١٩٥٠/٣/٤

دَرَجاتٌ مما عملوا

وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .

هو هدى القرآن . فى مشكلة المال . من مشكلات الاجتماع . وإنها لذات الأثر القوى . فى سلام الفرد والجماعة ، واستقرار حياتهما .

وقد طالعتكم قريبا . ببعض الأصول العامة . التى يرسى عليها القرآن هذه الحياة . ويقيم وجودها ، على اتزان واتساق ، يوقى الفرد والجمع كل اهتزاز واضطراب ، ويحفظ السلام الآمن .

ونريد لنتابع الحديث عن بعض هذه الأصول العامة . والأسس الكبرى . فى قيام الجماعة الخيرة ، المكونة من آحاد سالمين من آفات التباغض والتضاغن ، يواجهون الوجود صفا ، كأنهم بنيان مرصوص ، فيتقدمون بين الأمم وحدة إنسانية صحيحة ، خيرة كريمة ، طامحة إلى المثل السامية .

ومما يضع القرآن . من الأصول العامة لهذا البناء قوله :

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا . وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون .
الأنعام ١٣٢

وقوله :

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .
الأحقاف ١٩

ولو رحت تسأل المفسرين الأولين ، عما لفتهم إليه هذا الهدى لرأيتهم يشغلون عنه ، بما لاطائل تحته ؛ كالبحث فى أن الجن مكلفون أولا ؟ ويثابون ويعاقبون أولا ؟ ! ويدخلون الجنة أولا ؟ ! إلى مايتصل بذلك .

عما يشغلهم عن تدبير دنيا الأناسى الظاهرة . التى قد يكون فيها . من شياطين الإنس مايحتاج إلى مضاعف العناية .

وهؤلاء المفسرون قد خصوا الحديث ، قبل ذلك بالآخرة فقط ، وجعلوا الدرجات هى درجات الجزاء الأخروى . مع أن سياق الآيتين فى المقامين لايحتم هذا التخصص بالآخرة ؛ وهبه يتحدث عن الآخرة فإنا لاننسى أن هذا الدين إنما هو إصلاح للحياتين . وما الحديث عن الآخرة وجزائها إلا سبيل إلى إصلاح هذه الأولى وإسعادها ..

ولكن مفسرينا — رحمهم الله — قد شغلو بآفة ما يشغل به كل من أرادفهم نص ، وتفسير عبارة ، إذ يتجهبها إلى مايسيطر على تفكيره هو الاهتمام به .. وقد كانت حياتهم بنظمها وأوضاعها داعية إلى الهرب من الدنيا ، والفرار إلى الآخرة . فكانت لهم تلك العناية بها وحدها .

ولو قد عنى كل متفهم ومفسر بسياق ما يفهمه ويفسره ، وقدر ما العبارته ، من إيحاء وتوجيه ، وماتدل عليه من معان معروفة للنص عند وضع النص المفسر ؛ وراعى المتفهم ذلك لاتجهت عنايته إلى الهدف الحق للقائل ، وانطلق إلى الأفق الذى رنا إليه . . وهو مالم يتهيأ دائما لمفسرينا . فظل هذا القرآن ، بهديه الحكيم ، بعد عملهم الكثير فيه — أثابهم الله — موحيا إيحاء متجدداً . لايزال فيه المجال الفسيح ، للرغبة المخلصة فى فهمه ، والانتفاع بتوجيهه للحياة الجادة .

* * *

وإنه ليبدو للمتصل بهذه التفاسير السابقة أن منها ما غلبت فيه الثقافة الخاصة لأصحابه على اتجاههم فى فهم القرآن ، فوجهت ذلك الفهم وجهة خاصة ، بل طبعته بطابع فكرى معين حدد فسيح الأفق القرآنى أحياناً وألزمه مالاتلتزم عباراته أحياناً ، فكان منهم[1] من يقف من هاتين الآيتين السابقتين موقفا كلاميا محضا ، متجها إلى مسألة الإرادة الإنسانية ، وحريتها

(١) انظر تفسير الفخر الرازى . ج ٤ ص١٥٣ — ط الشرق سنة١٣٢٤ .

وعدم حريتها ، فرأى أن فى هذا المقام دلالة على صحة قوله هو فى الجبر والقدر ، ومضى فى بيان ذلك وشرحه ، موغلا فى تلك المشكلة النظرية الأبدية ، التى أثارتها الجدليات ، ولم تصل من حلها إلى شىء ؛ بل تورطت فى مآزق لم تستطع الحياة العاملة التورط فيها مع الجدل ؛ فذهبت تلك الحياة تؤاخذ ، وتحاكم ، وتعاقب ، وتلقى المسئولية . . كما قررت الأديان ذاتها ذلك : فكلفت ، وأثابت ، وعاقبت ، وميزت بين المفسد والمصلح ، من بنى الإنسان . . فمسألة الجبر والقدر — مع كل هذا — ليست مما نجد فى سهولة عناية هاتين الآيتين بها ، حينما تقرر أن ارتباط المنزلة والدرجة بالعمل ، ذلك الارتباط القوى الوثيق ، وإنما الذى يطمئن إليه قارئهما : أنهما تحدثان عن سير الحياة . واحتمال تبعاتها . وتنظيم تناولها . والحرص على سلامة تقدير العمل ، وجزائه فيها . . وذلك هو ماينبغى أن نقف عنده . ونعنى به ، مقدرين أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم.. نورٌ وكتابٌ مبينٌ يَهدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتبعَ رِضوانَهُ سبلَ السلامِ .

* * *

ونجاوز ذلك كله لننظر فى فهم هذا الأصل الاجتماعى الجليل، الذى شعرنا بوجوده فى نظم الآيتين الكريمتين : بعبارة واحدة « ولكل درجات مما عملوا » فيتبين لنا أن النظم متين النسج . قوى الأسر ، مثير لأصل أصيل ، وإحساس شديد ، بصلة المنزلة والقدر بالعمل : وربط درجة العامل بما عمل ؛ فانظر لقوله « درجات مما عملوا » وإقامته التقدير على العمل ، وتعبيره بأن المنزلة من العمل « مما عملوا » ، فللفظ « من » فى هذا التعبير قوة واضحة لاتجدها فى مثل قولك .. « درجات بما عملوا » أو « فيما عملوا » أو « من جنس ما عملوا » وما إلى ذلك من عبارات ، فالمنزلة من العمل : هو أصلها ومنشؤها : وهى منه منتزعة .

وتشعر أنه قال « مما عملوا » ولم يقل « درجات من العمل » ليذكر الإسناد المباشر ، وينسب العمل إليهم : فأقدارهم مما عملوا هم ؛ ولو كانت الدرجات من العمل لاحتمل أن يناصروا العمل : أو يروجوا له ، أو

يشجعوا مايقع من عمل غيرهم .. كلا .. لاشيء من ذلك بل الدرجات مما عملوا.

ولا تنس أنه اختار من الفعل صيغة الماضى ، التى هى لما وقع ، وتم ، وانتهى ، فالدرجات مما تم من عملهم تماما فعلياً .. ومن هنا ندرك مافى النظم الملتزم فى الآيتين ، من توجيه إلى الربط بين المنــــازل والأقدار والدرجات ، وبين عمل من يراد تقديرهم وإعطاؤهم الدرجات .

ثم إن هذا الأصل القوى قد جعل عاما شاملا ، ودلت العبارة على قوة هذا العموم ، وأنه « لكل » فذكرت الكلية ، ولم تضف إلى صنف ، أو جنس ، أو نوع ، أو فرد ، بل أرسلت منونة تنوينا ، يعوض عن كل ما يمكن أن تضاف إليه ، فلكل المكلفين ؛ أو العاملين ؛ أو الأفراد ؛ ولكل جنس ؛ أو كل ما يمكن أن يكون .. لكل أقدار مما عمل .

ولك أن تجد من عموم هذا الاصل ، وشموله ، وأصالته ، ما تجد نفس حساسة للفن القولى القرآنى ، من قوة المعنى ، فى ربط الأقدار ، بعمل العاملين : أى عاملين كانوا ، وأياما كانوا ..

* * *

وإذا ما ارتبط القدر ، والمنزلة ، والدرجة ، بما عمل العامل فقد احتاج ذلك إلى التقدير الدقيق ، السليم اليقظ ، لعمل من يعمل ، وبانت أهميـة ذلك . فى تحقيق هذا الأصل ، وظهور أثره فى الحياة ..

وذلك التقدير الصحيح ، والبالغ ، اليقظ ، هو ما مضى عليه ، بيان القرآن ، لهذا الأصل ، ذلك البيان ، ذا الروعة القرآنية ، إذ يعقب على تقرير هذا الأصل الهام ، بقوله : وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعملونَ ؛ فينص على النفى المستأصل للغفلة عن الرب ، وحاشاه ، جل ثناؤه ، أن يتوهم ذلك فيه ؛ ثم النفى تصاحبه الباء فى قوله « بغافل » مشيراً إلى الأهمية العظمى لتقدير الدرجات ، الذى يحتاج فيه إلى نفى الغفلة ، عن الحكيم ، القادر ، الخبير ، العالم الذى يعلم السر وأخفى .. فإلى أى حد يحتاج البشر ، بطاقتهم المحدودة ، إلى التنبه ، واليقظة ، والحذر ، والدقة فى تقدير عمل من عملوا ؟؟ وذلك

هو تمام مايقرر من هذا الأصل الهام ، ببليغ التعبير ، فى قوله . . لِكل دَرَجاتٌ مِمَّا عمِلوا .

وهذا التقدير الدقيق العادل له ما بعده ، من جزاء واف ، على عمل العامل ؛ وهو ما يكمل بيانه فى الآية الثانية ، بقوله ، بعدهذا الاصل ، الذى تقررت فيه العبارة نفسها « لكلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلوا » . وتلاه فى الآية الثانيةقوله « ولِيُوَفِّيَهُمْ أعمالَهُمْ »أىأنَّهذا التقدير الذى سمعناوصف دقته . إنما هو وسيلة لتوفية العاملينأجر عملهم الذى قدر لهم ، تقديراً ليس فيه مكان مّا لحيف أو جور ، لأنه تقدير مصون برقابةالله ، الذى لا تجوز عليه غفلة ما ، فجعل القدر والدرجة مما عملوا ليوفيهم أعمالهم ، ويزيد هذا تقريراً ختم الآية بقوله : وهمْ لا يُظلَمُونَ ، وهو تقرير بعيد المدى فى نفى الظلم . وتأكيد العدل تأكيداً ثابتا ، مطردا ، مستقراً ، بهذه الجملة الاسمية . . والدلالة فيه بعيدة المدى .

* * *

وليس ما يذكر من هذا الأصل ودقته ، وقيمتهوأثره فىالحياة مما ندعيه إدعاء ، أو نتلمسه تلمساً ، بلهو مما يلفتإليه هدىالقرآن لفتاً ، يبينه السياق فى الآيتين ، بياناً صريحاً ، لقيمة هذا الأصل ، وجدواهعلى حياة الجماعات . وذلك أن هذا الأصل إنما سيق فيهما ، بعد حديث القرآن ، عن حياة الامم ، وآفاتها الاجتماعية ، وذلك أنه فى إحدى الآيتين يسوقه بعد قوله :

ذَلِكَ أنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأهْلُهَا غافِلُونَ .
الأنعام ١٣١

وبعدها : ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . . وفى الموضع الثانى يقول :

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإنسِ إنَّهُمْ كَانُوا خاسِرِينَ .   الاحقاف ١٨

ويليها قوله: ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم ، وهم لايظلمون .
وتمام الدقة فى هذا التفسير الأدبى لمعجز القرآن هو فهم السياق الذى يرد فيه التعبير القرآنى ..

وهكذا ندرك أن تقرير هذا الأصل العام : من ربط التقدير بالعمل . والجزاء الدقيق على العمل بلا ظلم ، إنما هو تقرير قرآنى ، لا شىء فيه من اختراع القول ، ولا تحكم الفهم ، بتوجيه شىء ما ، ليس من سياق القرآن وتوجيهه ، ومرماه الجلى البين . .
ولو وقفت أشير إلى ما فى الآيتين وسياقيهما ، من النزعة الاجتماعية لجهدت وأطلت ، فى غير حاجة ، بعد الذى سمعت من نظم الآيات ، وموقع هذا الأصل فى السياقين .

* * *

يا قوم . . أرأيتم لو قدرتم هذا الأصل ، وجعلتم درجات الناس مما عملوا ، والتزمتم فى ذلك التقدير الدقيق ، لتوفوا العاملين عملهم ، وهم لا يظلمون ؟ . . ماذا كان يكون الأثر فى حياتكم المالية والعلمية . . وماذا تكون الجدوى على استقراركم وتقدمكم ؟
وإلى أى حد تذوب مشكلاتكم المالية والاجتماعية بالتزام هذا الأصل ، الذى يراقبه من لا يغفل ، ويوفيه من لا يظلم أحداً .

وما بكم من حاجة إلى أن أعدد لكم من مظاهر عدم التقدير . . وضياع الجزاء . . والدرجات بلا عمل .. فأنتم أكثر استحضاراً لذلك مما حولكم ، وأشد انتباها له . .
وأنتم بذلك أكثر الناس تقديراً لصحة هذا الأصل ، وأثره فى علاج مشكلاتكم . . فهل تنفع الذكرى ؟ أرجو وآمل .

١٩٥٠/٣/١٤

صراع المبادئ

وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ .

باطمئنان الايمان ، وهدوء اليقين ، وفى نور الكتاب المبين ، ننظر فيما حولنا ، من اختلاف الآراء ، وصراع المبادىء ، محاولين التأسى ، بما وصف الله به رسولنا الكريم ، فى قوله :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ

فنرثى للمنكر . ونحرص على هداية المخالف ، يعز علينا ما عنت إخواننا فى الإنسانية ، فإنها النفس الواحدة . . والله المستعان على هذا التأسى ، بتلك الخلقية السامية النبيلة .

* * *

ننظر إلى الدنيا حولنا اليوم ، وعلى ذكر من أمسها القريب فنراها ثائرة الأنفس ، مهتاجة القلوب ، مبلبلة الأرواح ، قد لقيت كل أمة منها أختها بالرأى المخالف ، والمذهب المغاير ، والمبدأ المعاكس ، ووراء ذلك كله العدة الفاتكة ، والقوة الماحقة ، والأسلحة المهلكة ، والمبتكرات المبيدة ، والجد فى ذلك متصل ، والنشاط عنيف ؛ وقد بدا الكيد ، وصرح الشر ، وتقسمت هذه الأرض خطتان ، وتوزع ذوى الشأن من أهلها مذهبان ، فانتظم الأقوياء فيها معسكران ، وتجاذبت السيطرة فيها قوتاهما ، ومن وراء ذلك من المصافّ والأحلاف تبع لهؤلاء وأولئك ، أو ضحايا لهؤلاء وأولئك .

وترى ذلك كله فتحسبه من أشراط الساعة . وتخاله من علامات القيامة وتعده بداية النهاية ، وأمارة دنو الخاتمة ، ويتملكك جزع منهار ، ويأس متهالك . . لكن لو قد أفرخ روعك ، وأسعفك صبرك ، وعادتك الثقة المؤمنة ، وواتتك البصيرة الهادئة ، والنظرة النافذة ، لرأيت الأمر على غير هذا الوجه ، وفى غير هذه الصورة ، ولبدا لك — أو كاد يبدو — أن الشر لايخلو من خير ، وأن التجربة المعانية ، والشدة القاسية سبيل المعرفة الصادقة والحكمة الحقة ، وأن فتنة الذهب بالنار تصفية وتنقية ، وأن المادة المظلمة والجسم الكثيف غلاف العقل المستشف ، والروح المحلقة ، والفكر النقاد . وعلى اجتماع هذين أقيمت الحياة . . فلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ الله . . إنهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القَومُ الكافِرُونَ .

• • •

وهل يبعد أن نقدر أن هذا الاختلاف فى الآراء ، وذلك التقاتل على المبادىء ، إنما هو من نواميس الحياة على الأرض ، وليس ظاهرة تحلل ، ولا أمارة فساد ؟

وهل يصعب أن نلمح وراء هذا النضال والنزال وميض أمل ، وأن خلل هذه المعارك والمهالك بارقة رجا خيّر ، وأن الانسانية تلمح هذا الوميض وتستشرف لهذه البارقة . رغم ذلك كله ؟ . . وأنها بعد ما تعانى ، وتلقى ، وتبذل . وتخسر ، ستظفر بعد ذلك كله ، وتكون هى المنتصرة آخر ذلك كله ، لأنها تزداد بكل أولئك شعوراً بكيانها ، ومعرفة لنفسها ، وإقراراً لحقها ، وإثباتاً لكرامتها ، إذ لا يبقى على هذه الشدائد إلا الأمثل ، ولا يظفر إلا الأصلح . . فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً ، وأما ماينفَعُ النَاسُ فيمكُثُ فى الأرْضِ .

وفى هذا الطريق الوعر . والمسلك الصعب قد سارت البشرية ، منذ ظهرت على الأرض ، فلم تعرف عملا نافعا ، ولم تكسب علماً جديداً

ولم تغير نظاماً فاسداً ، ولم تصلح خلقا رديئا إلا بعدأن خالف لاحق سابقا وخاصم متأخر متقدما ؛ وقربت الحياة فى هذا الخصام قرابين : من أعراض وأرواح ، وأموال ؛ وبهذا الذى قدمت فى سالف الأدهار استطاعت أن أن تظفر أخيراً ، بألوان من المعرفة ، وصنوف من العلم ، وفنون من العمل ، وضروب من الهداية ، فكشفت أسرار المجهول ؛ وارتفعت عن مستوى ما حولها من كائنات أخرى ، بقيت سوائم ضوال . . فشعرت هذه البشرية بوجودها ، وعرفت بعض نفسها ، وغيرت من أمرها ، ورقت من حياتها ؛ وهكذا كانت دائما تعطى وتأخذ ، وتخسر وتربح . وتبذل وتظفر وتناضل فتتقدم . ولا أحسبنا نخطىء الدلائل على ذلك فى ماضيها القريب أو تاريخها البعيد ؛ بل إنا لنجد خط سيرها ، فى التاريخ واضحا ؛ وقبلة اتجاهها بادية ، ونشهد أن نتيجة هذا الصراع دائما هى : مع العسر يسراً ، ومع الضحايا مكاسب ، وبعد العناء تقدم فى نظم الحياة ، وتحسن فى نمط المعيشة : بعلم يكتسب ، وحق يستفاد . . وما ذلك — فيما أقدر — إلا بعض معنى هذا الأصل ، الذى تشير إليه تلك الآية ، التى صدر بها هذا الحديث .

وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ .

وعلى هذا الفهم يسير الصراع الإنسانى ، وعلى هذا التأسى بخلق الرسول عليه السلام : من حرص على المخالف ، وضيق بعنت المدعوين . . على هذين الأساسين ، من عقلى ونفسى ، نريد لننظر فى هذا الصراع الاجتماعى ، على المبادىء المتخالفة ، والمذاهب المتعارضة ، التى تتوزع البشر اليوم ، وتتقسم الأمم الآن .

* * *

ولعلنا بعد الاطمئنان إلى جملة الرأى ، فى سير هذا التنازع ندرك — فى يسر ووضوح — أن هذه البشرية كلما نضجت خبرتها ، وزادت معارفها وتقدم علمها ، قوى شعورها بذاتها ، وزاد تطلعها إلى الوجود الكريم ؛

والحياة العزيزة ؛ فدعا الداعون ، وسعى الساعون ، بل ناضل المناضلون ، فى سبيل أن يكسبوا حقوقا ، فى حياة تليق بعقول مفكرة ، ونفوس محسة ، معتزين بكرامة هذا الإنسان ، غير مكتفين بهذا التكريم بالقول المردد والاعتبار المفهوم ، والرأى المقرر ، بل عملوا ليجعلوا ذلك التكريم حقا مؤكداً ، وأمراً واقعاً ، ونظاما سائداً ، تعمل الجماعات على تشريعه وتنظيمه، وتحقيقه وتنفيذه ، غير راضين بما دون مستوى من العيش ، يرضى هذا الإنسان الكريم ، ويليق بالكائن المتعقل ، المتمدين . . وفى سبيل تحقيق ذلك وتأصيله ، وصونه وضمانه ، كانت المذاهب السياسية ، والمبادىء الاجتماعية أثراً لثورات أشعلتها ، ومعارك خاضتها ، فأزالت دولا ، وأوجدت حكومات تحمى ما كسبته بجدها وجهادها . وذلك هو الصراع الذى تلون اليوم به السياسات فى كل مكان ، وتدور حوله المنازلات ، ويقوم عليه وجود الدول ، ومنه يكون لونها . . ويؤخذ اسمها . . ويرفع شعارها . . وتتخذ شارتها .

ولو نظرنا فى أناة ، وقدرنا فى تريث ، لرأينا الأمر فى جملته وتفصيله ليس إلا محاولة هذه البشرية أن تكسب حقا ، وتحقق أملا . مهما تتفرق السبل ، وتتعارض المذاهب . وتختلف الصور .. ولا تستبعد فى شىء هــذا الذى أعرض عليك ، من طمع هذه البشرية وأملها ، ومحاولتها الظفر بحق الإنسانية الكريمة . مهما تتخالف مذاهب الناس ، ومهما تتعارض المبادىء الاجتماعية . فإنك لترى وتسمع مصداق هذا ، فيما يملأ الدنيا حولك ، من أهداف متحدة ، وغايات متماثلة ، تبدو فى وعود هؤلاء جميعا ، كما تنطلق بها برامج هؤلاء وأولئك ، وتتردد بها أحاديثهم فى كل مناسبة ..مهما يختلف التدبير ، ويتنوع العمل .

وها نحن أولاء : نسمع ما حولنا . من مذاهب تتقسم الدنيا ، وآراء تتوزع الأرض ؛ فديمقراطية وشيوعية ؛ ومبادىء هادمة ، وأخرى بانية ؛ ومبادىء فاسدة ، وأخرى صالحة .. لكنها جميعا سواء ، تنتضل هدفا واحدا ، وتستبق — ولو بالدعاوة والنشر — مثلا واحدا ، فالكل يتحدث عن الحريات وتوافرها ، ورقيها ورغدها ، والمستقبل وإشراقه ، وسعادته ، .. ولو لم يكن

فى الأمر إلا هذه الدعاوى المرددة ، والإذاعات المنثورة لاستنارت بها الأذهان ، واستشرفت النفوس ، وتطلعت الأرواح ، إلى هذا الأمل الموعود ولا يعلم إلا الله ماذا يكون فى الغد ، حول هذه المبادىء ، من صراع ونزال ؛ وماتخسر البشرية فى هذا من أنفس وأموال . . لكن لابد أن تخرج البشرية من هذا بقرب من تلك الآمال ، ودنو من سمو هذا المثال ؛ وسيحقق هؤلاء وأولئك — راضين أو راغمين — بعض الذى يزعمون ، فتجرى الفطرة على سيرتها الأولى ، وتحقق السنة اتساقها المستمر . فلا يخلو شر من خير ، ولا يكون كسب إلا ببذل . . وتستطيع البشرية — فيما ترجو دائما — أن تمضى صعدا ، وتذهب قدما .. وكانت تستطيع أن تقلل ضحاياها ، لو أصاخت لهدى ، وانتفعت برشد ، ووعت نصحا . وليت ، . . وليت

* * *

ياقوم . . هل لكم إلى الانتفاع بهدى القدوة النفسية ، ووحى الحكمة العقلية ، فأما القدوة النفسية ففيما سمعتم أثارة منها ، فى هدى القرآن ، عن معاملة المخـــالف ، فى حرص عليه ، فتنتفعوا بذلك ، فيما تبغون من مقاومة المبادىء الهدامـة ؟

وأول ذلك من القدوة النفسية . أن تكون دعوتـكم متـأسية بسيـد القادة ، تحب أن تحرص على من تدعوهم ، ويعز عليها مايعنتهم ، وتتولاهم برأفة ورحمة ، لا بالهجاء المقذع ، والسب المفحش ، فما كانت هذه دعوة ، ولا تلك حجة . . وحبذا الراحة من هذا العناء . .

وأما الحكمة العقلية فنى الشعور — بطموح الإنسان ، وكرامة الآدمية ، شعورا يدفع إلى عمـل ، فتـكون مقاومـة الشر بالخير ، ومناضلة الفساد بالاصلاح ، إصلاحاً حقا ، جادا عاملا نافذا ، ناجزا ؛ فبذلك توفرون على الآدمية بعض خسائرها ، وترضون طموحها ، وتحترمون تساميها . وتؤدون حقها ، وتقدرون ما هى إليه سائرة ، وله متطلعة ، وبه مستمسكة ، وليس

بالغريب عنكم أن تكونوا خير من يتأسى بالقدوة المثلى : فيدعو مترفعا ، ويدرك الحكمة العليا واعيا ، فيعمل جاهدا ، وينفذ مصمما ، وأنتم الذين دعيتم إلى العمل ، ودفعتم - فيما سمعتم — إلى التقدير بالعمل ، وخير ايمانكم أن يشفع بالعمل — وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنُونَ

١٩٥٠/٤/١١



رفع الدرجات

أو أتحدث عن رفع الدرجات ؟ إذن يخال خائل أنى أتحدث عن تلك المراتب المالية ، فى الوظائف الراتبة ، لذوى العمل الحكومى ، وهاتيك الأقدار للعاملين ، من درجات فنية ، وإدارية وما إليها ، ورفع واحدة منها ، وتغيير مربوطها . . ولمثل ذلك ترهف الآذان ، وتتجه النفوس كثيرا . . وفى الحق أنى لاأبعد عن هذا الموضوع كثيرا ، وإن كنت لا أفقه فى هذا النظام كثيراً . . .

نعم . . لايبعد حديثى عن نظام الدرجات والمرتبات ، إذ أتحدث عنه فى دائرة أوسع وأفسح من دائرة الوظيفة الحكومية والموظفين . . فأتحدث عن الدرجات والمراتب ، والمنازل ، التى ينزلها الناس فى الحياة ماديا وأدبيا ، سواء أكانوا مستخدمين فى الحكومة أم غير مستخدمين . . فى أى عمل . . ومن أى فئة . . .

وأنظر إلى المدارج والأقدار التى تجعل الناس أقساما ، وتردهم طبقات ، لألتمس من هدى القرآن شيئا من البيان لأساس هذا التقدير . ومنشأ ذلك التفريق . وهل يرجى أن يكون ذلك الأساس . مما لاتهيج به أحقاد ، ولا تثور منازعات ، ولا تألم نفوس ، ولا تجرح قلوب ، ولا تخلق فى المجتمع مشكلات .

. . .

وأجد أن الناس قد زين لهم حب الشهوات ، من متاع الدنيا ، فجدوا فى طلبه ، وتنافسوا عليه ، وتقاتلوا ، حتى كان تاريخهم على الأرض صورا من السعى إلى هذا المتاع ، وضروبا من الحرص عليه ، وأساليبهم فى ذلك

هى التى خلقت المشـــكلات ، وأثارت الواقعات ، وهاجت الحروب ، وأخرجت الأضغان .

وهكذا تفرقت السبل بأبناء آدم فى كل شئ من مادى ومعنوى : فهم أجناس وشعوب ، وألوان ، ولغات ، وأديان ، ومذاهب ، وطوائف ، وشيع ، ونظم . .

ومن كل أولئك وبه يستحكم بينهم العداء ، ويشتد الخصام ، لخصومات العناصر والألوان . . وخصومات العقائد والأديان . . وخصومات الآراء والمبادئ . . وخصومات المذاهب الاجتماعية والنظم . . وفى تلك الخلافات المشتجرة . والمنازعات المستعرة تضيع حقائق ، وتتهم فضائل ، وتنكر مزايا ، وتجحد مكارم . . ليشوه قوم ماعنـــد الآخرين ، أو لتحطم ثقة قوم بما هم عليه وما عندهم . فيضيع على هؤلاء وأولئك مافى كل ذلك من خير ونفع ، لعله كان يأسو منهم جرحا ، أو يقرب مسافة خلف ، أو يلطف من حدة .

وفى هذا الذى نستمع من هدى القرآن يرجى أن يكون الاتئاد غير المندفع ، والهدوء غير المنفعل ، سبيلا الانتفاع بشىء مما خلف للحياة جهد متصل ، طويل ، فى سبيل الحق والخير والسلام ، على يد رسول كريم . . أو مصلح مخلص . . أو مفكر عبقرى . . أو حكيم فطن . تراءت له الحقيقة ، وخلصت منه النية .

. . .

ولقد أنهى إليكم من هدى القرآن ، فى الحديث عن : درجات مما عملوا . أنه يقيم هذه الأقدار والمراتب ، والمنازل ، فى الأولى والآخرة . على أساس ترتاح له العقول ، وتطمئن به القلوب ، اذ يجعلها درجات مما عملوا . . فى تقدير سليم دقيق ، يوفيهم أعمالهم ، عدلا بلا ظلم أبدا ، وفى دقة كاملة .

ولحنا من إيحاء النظم القرآنى ، فى تأصيل هذا الأصل وترسيخه ، مايكفى من إيضاح وقوة — ولكن الدنيا تصطخب حولنا ، بدعاوات شاكة ، ونفوس تفيض بصنوف من السخط الحائر ، والإنكار المتبرم وتجعل من الأصل المرضى فى التقدير موضعاً للحاجة إلى القول المبين ، والاستيفاء المبرىء لهذا الأصل من الاشتباه أو الاتهام . . ولذلك وصلته بهذا الحديث عن رفع الدرجات . . وهل جرى هدى القرآن فيه بما يعزز الأصل العام ، فى التقدير بالعمل ، أو تراه تركه عرضة لهزة تؤثر فيه ؟

. . .

وتنظر فترى الناس قد اختلفت فيهم المذاهب الاجتماعية ، فنصبت تلك المذاهب لكيد المخالفين ، وكان من هذه المذاهب ما هو محتد حانق ، عنيف ساخط ، يرى آلام الأحياء ، وبؤس بنى الإنسان . وما بينهم من فوارق فادحة ، وحظوظ متباينة ، وطبقات متنازعة ، فيشق عليه ذلك ويسخطه ، فيندفع زاعما أن للدين يداً وعملا ، فى إقرار هذا والتمكين له ، وحمايته والدفاع عنه ، بما يقرره من التسليم بالسلطة المطلقة ، والإرادة المتفردة ، المحتكمة فى المنح والمنع ، والإعطاء والحرمان . والتفريق فى ذلك على غير أسس مفهومة ، ولا مبررات معقولة ؛ ويعد هؤلاء الساخطون من هذا اللون ما يقال دينيا ، عن الرفع والوضع ، بالمشيئة الآلهية المجردة فحسب . . ويعم قول هؤلاء الساخطين كل دين وملة ، لا يفرقون ولا يميزون ، فيعدون هذا الذى ينسبونه للتدين مؤثراً . على الأصل العام ، والمبدأ الأساسى الذى تبين أن القرآن يقرره فى وضوح جلى وهو :

لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا . . ولمثل هذا من قولهم حسن الوقوف عند رفع الدرجات ، وقفة تبين أساسه وأصله . . وهل هو فى القرآن بالتشهى المتحكم ! وعلى غير أساس ولا أصل ، سوى المشيئة أياً ما كانت ؟

. . .

وترى أن القرآن يتحدث عن رفع الدرجات ، بمحض المشيئة ، فى موضعين اثنين ، إذ يقول فى الأولى :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ . نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . الأنعام : ٨٣

وفى الثانية يقول عن يوسف عليه السلام :

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ ، فِي دِينِ الْمَلِكِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . يوسف : ٧٦

وفى الموضعين الآتيين نجده يستعمل — كما ترى — تعبيراً واحداً هو : « نرفع درجات من نشاء » ، أو على قراءة أخرى « يرفع درجات من يشاء » والمعنى فى المآل واحد . لا يختلف — وهو ما يحسب أولئك الظانون بالدين ظن السوء أنه تصريح جهير . بأن رفع الدرجات واختلافها وتفاوتها بمجرد مشيئة الله ، تلك المشيئة المطلقة ، فكذلك يفهم المنتسبون للدين ، ويفهمون الناس ألا موضع للتساؤل ، أو طلب التعليل لشيء من هذا الرفع والوضع . . يريدون بذلك ليدفعوا الناس إلى تسليم يمكن معه التمكن من رقابهم ، وجعل الفوارق بينهم قضاء ربانياً ، لا يفهم وجهه ، ولا يعترض عليه إلا من يعارض مشيئة الله . . وهو ما لايستطيع متدين أن يرفع به صوتا . . وبهذا الأسلوب ، وعلى تلك الطريقة يدفع الدين إلى الاستسلام ، فى رأى أولئك الذين يقولون فى الدين والتدين ما يقولون ، ويثيرون من غبار الشبهة من هذا الطريق ما يثيرون ، فيزيدون الأمر تعقداً ، ويحرمون النفوس سلاما ، ويضيفون إلى عوامل الصراع المرير عاملا جديداً . .

وهنا يعوز الناس ما أشرنا إليه قريبا ، من الاتئاد والهدوء ، والمصابرة

فى التحدث إلى أولئك المهاجمين ، ليلقوا لنا القول بأناة فصيحة ، وشىء من حب الحقيقة ، ينصفها ويقبلها حيث كانت . . فننظر وإياهم إلى رفع هذه الدرجات بالمشيئة . فى ضوء فنى إنسانى ، يجد الحس القرآنى للفظة التى يكثر دورانها فيه ، لنعرف ما يتسق به معناها ، فى مواطن ورودها المختلفة . . ثم ننظر — فى هذا الضوء الفنى الانسانى نفسه ، إلى سياق الآيتين ، المتحدثتين عن رفع الدرجات ، لنعرف المعنى الذى يوجه إليه السياق ، بعد الذى وجدنا من إيحاء النظم القرآنى فيهما ما يؤيد هذا البيان .

ولكنى مع الحرص الشديد ، على أن يفهم القرآن هكذا ، وألا يفهم إلا على هذه الطريقة الفنية الحساسة ، أخشى أن يفهم أولئك الذين نحدثهم عن المدى الاجتماعى فى القرآن ، أن ما نحاوله اليوم ليس هو الذى فهم به الناس هذا القرآن قديما ، حينما وجهوا الحياة تلك الوجهات ، التى منها الشكوى ، وأقروا مبادىء الاستسلام والتسليم ، فى عقول المتدينين من الناس ، وفى نظام حياتهم الاجتماعية ، فكان فى تلك النظم ما كان من ثغرات اجتماعية . ومناشىء للاضطراب ، صنعت تلك الفوضى فى الطبقات .. ومن أجل ما أخشاه من مثل ذلك أعمد دائما إلى قول بعض المفسرين الأقدمين أنفسهم ممن شاموا بعض هذا النور ، واتجهوا إلى مشارقه . أبدأ من قولهم التوجيه إلى تمام البيان الفنى ، والتفسير الأدبى .

* * *

وفى هاتين الآيتين السابقتين نسمع للأولين من المفسرين أنفسهم ، حين يحدثون عن تلك السنن الإلهية ، فى تقدير المراتب ، وإنزال الناس منازلهم فى الحياة ، فإذا غير واحد منهم يقف ليفهم : أن رفع الدرجات يجب أن

يكون فى غير شهوة ، ولا تشه ، ولا مجازفة ، ولا عبث ، ويجدون هذا المعنى . فى لفظ القرآن ، وهو فى الآية الأولى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم » فيقول مفسر[1] منهم « وأما قوله حكيم عليم فالمعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بالحكمة والعلم ، لا بموجب الشهوة والمجازفة ، فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل .

وكذلك يقول مفسر آخر[2] : نرفع درجات من نشاء ، بالحكمة والعلم ، إن ربك حكيم عليم ، فيرفع الدرجات بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب التشهى والشهوة .

فهم — كما نسمع — يجعلون رفع الدرجات بمقتضى مشيئة حكيمة عليمة : لا تعبث ، ولا تجازف ، ولا تشتهى ، ولا تفعل الباطل ، ولا ترتكب إفساداً . وعلى هذا فليس فى التدين خطر ما على دقة التقدير ، وعدالة الدرجات ، وإقرار الحق فى رفعها . وليس فى شىء من هذا ما يلزم الناس بالخنوع ، أو تقبل الفوضى ، والسكوت عن طلب الحكمة ، بل طلب الحكمة العالمة .

ثم إن هؤلاء المفسرين مضوا إلى أبعد من ذلك ، فى تقدير العدل والحق فاستنبطوا من الآية أنها ترفع شأن العلم ، بجعله أساس التقدير ، فاسمع لقائلهم[3] يقول :

« هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات ، لأن الله وصف إبراهيم عليه السلام بقوله . نرفع درجات من نشاء ، عند

(١) الفخر الرازى — التفسير — ج ٤ ص ٨٣
(٢) النيسابورى — على هامش الطبرى — ط بولاق ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٠
(٣) الرازى ١٥١/٥ — بتصرف فى اللفظ .

لإيراده دلائل التوحيد ، والبراءة من إلـهية الشمس والقمر والكواكب .. ووصف يوسف أيضا بقوله : « نرفع درجات من نشاء » لما هداه إلى الفكرة ، والحيلة التي سلكها مع أخيه » .

وكذلك أضاف الأقدمون أنفسهم إلى عدالة التقدير فضل العلم ، حين يكون أصل التقدير ومرده ، فيكون للعلم وأهله أرفع الدرجات ، وأسمى المراتب ، لأن الدرجات مما عملوا .. والعلم بهذا أفضل عمل ، والأمر على هذا بين جلي ، لا كبت فيه ؛ ولا حمل على استسلام لغير مفهوم .

وهو توجيه لا يجد فيه الظانون بالتدين ظن السوء شيئا ، من حماية أوضاع الطبقات الجائرة ، ولا معاونة الدين على شيء من ذلك . فليس من الحق أن يظلم التدين ؛ ويدعى عليه أنه يمهد للفروق الظالمة ، والامتيازات الجائرة .

فياقوم .. استجيبوا لهذا الهدى الحكيم فى التقدير والإعطاء ، واجعلوها دائما درجات مما عملوا ، والعلم العامل أسمى الدرجات .. وبهذا لا يظلم أحد ولا يسخط أحد .. ولا يضطرب حال .. ولا تتلقى النفوس توجيه سوء .. ولا يخشى بأس ولا ضرر .

١٩٥٠/٥/١٦

* * *

الشيطان يعدكم الفقر

– ١ –

« واعلموا أن الله غني حميد » . .

نذكر دائما ماتهدف إليه هذه الأحاديث ، منذ عهد غير قريب . من التماس هدى القرآن ، فى مشكلة المال ، من كبريات مشكلات الاجتماع ؛ بل كبراهن . . فالمال وحظوظ الناس منه ؛ وتقسيمه إياهم إلى أغنياء وفقراء هو المحور الذى يدور عليه التدبير الاجتماعى ، والتفكير الاجتماعى ، وتنشأ عنه المذاهب المختلفة . والمبادىء المتصارعة . التى تتوزع الدول . وتتقسم الأمم ، وتخطط المعسكرات ، وتثير الحروب وتدير المعارك . . ويحسب بعض هذه المبادىء هداما فيحارب ، وضالا فيقاوم ، وبعضها صالحا فيدعى له ويعمل على نشره ... وفى هذا الحسبان تتسع هوة الخلاف منذ عهد آدم بالأرض إلى الآن ، وإلى الغد البعيد ، الذى يظل للآدمية فيه بالحياة عهد ، وعلى هذه الأرض مقام .

ولطالما سمعنا ونسمع ذكر المبادىء الهدامة ومقاومتها ، والتشريع لذلك والتدبير له ، والجد فيه . . ولعلنا نسمع عن ذلك قدر ماسمعنا ذكر الأعداء الثلاثة : الفقر والمرض والجهل ، ومقاومة هؤلاء الأعداء والتشريع لذلك والتدبير له والجد فيه . . أيضاً .

أجل . . طالما سمعتم عن هذه المبادىء وتفكيرها فى مشكلة المال ، وألمها من الفقر وحال الفقراء ، وطالما سمعتم عن أولئك الأعداء الثلاثة وبشاعة فتكها بالفقراء . . لكنكم – مع ذلك كله كنتم – ولا تزالون – تسمعون مما حولكم أيضاً أصواتا أخرى بأنغام وألحان أخرى ، منافرة فى نشاز للأنغام والألحان ، التى تردد عن الفقر والبؤس ، وآلام الفقراء البائسين . وتلك الأنغام والألحان هى التى تذكر الفقر فتنتسب إليه

و تأخذ منه وصفها ، الذى به تعرف ، وتشيد بشأن الفقر والفقراء ، وتميز بصفتهم ؛ وأولئك هم أرباب الطرق الصوفية . . وكلنا يعرف من وجودهم وشأنهم ، والاعتراف بهم وبصفتهم رسمياً مانعرف . . .

وهم يختارون لأنفسهم اسم « الفقراء » . . . والفقير منهم رجل قد سلك فى الحياة سبيلا لها نظمها وأصولها ، ولها هيئاتها وجماعاتها ؛ كما لها شاراتها ونشاطها ومنزلتها . . . وأولاد الفقراء بهذا المعنى المعروف ؛ : فئاتهم ، غير أولاد الفقراء فى المسرحية والعنوان التمثيلى المشهور .

بل قد ترك هؤلاء الفقراء الصوفية فى الحياة اليومية ولغتها آثاراً وتعابير عن كل ما لا تلتزم فيه الشكليات المظهرية ، ولاتجرى فيه الأمور على مراتب الناس وطبقاتهم المختلفة ، بل تتبع فيه البساطة والتساهل بلا تمايز ولا تفاضل فيسمى عمل فقرا . . وما منا إلا من أظن أنه قد سمع غير مرة مثل قولهم خليها قهوة فقرا . . وقولهم : « خلى البساط أحمدى » أى دع الامور تجرى بلا ترتيب وتمييز وتشدد فى التفريق . . وبلا امتياز ولا تفضيل لأحد على أحد

هناك إذن فقران : فقر يتسم به ناس ويفخر به هؤلاء الناس . . وفقر هو عدو بغيض محارب . . فما الفقر المفسد للمجتمع ؟ المخرب لحياته ؟ . . وما الفقر الآخر المتمثل به ، والذى لايكرهه أصحابه ؟

وقبل محاولة الإجابة عن ذلك نشعر أن الأمر لم يقف فى هذا الاختلاف عند انبعاث الأنغام المتنافرة من أرجاء متباعدة ، وتردد الأصداء المختلفة من آفاق متعددة ، بل اختلطت تلك الأنغام ، وتلاقت تلك الأصداء ، فى أفق واحد ومجال واحد . . . وذلك عند الحديث عن الأعداء الثلاثة المعروف أمرها والمرغوب فى حربها ، نجد فى الصحف السيارة اليومية إلى جانب الدعوة إلى هذه الحرب ، والتنفير من أولئك الأعداء ، أنهارا فى تلك الصحف تفيض بالحديث عن أن الفقر نعمة ، وتشيد بمنزلة الفقراء ، وتحسدهم أو تغبطهم على

مكانتهم فى الجنة ، وترى أنهم قد ظفروا من فقرهم التعيس بخير وفير وحظ كبير ، مالهم بعده إلا الرضا فى الدنيا ، والاطمئنان فى الحياة ، فتعجب إذ ترى هذا بين أعمدة الصحف ، وإلى جانبه عبارات خلابة متحمسة ، تسهب فى الحديث عن أن الفقر هو أصل الأدواء جميعا ، وسر التأخر ومصدر المصائب كافة ؛ وينتقل القراء بين هذه وتلك كما ينتقل السائر فى العاصمة بين أحيائها المختلفة وبيئاتها المتنافرة ، فيرى العجب العاجب من ذلك التنافر ، فيسمع عن الفقر فى المسرح الموجع المؤلم ، وعلى أمتار من المسرح يسمع عن الفقر فى المعبد نقيض الذى سمع فى المسرح ، وما يزال يجد ظواهر هذا التنافر المكرر ومنتشرة ، فيتحدث إليه المتحدث فى مجلس عن آداب الفقراء وفضل الفقراء ، وتقدم إليه فى ذلك كتب ، كأنه حاضر إلى جانب ذلك عن آلام الفقراء ، ومصائب الفقراء ، وجنايات الفقر . . فاذا الفقر يسعد به الناس . . وإذا الفقر تبتئس به الأمم . . وبجتمعنا فى أمر مزيج ، وموقف مختلط متضارب . . فما هذا الفقر المشقى . . وماذاك الفقر المسعد ؟

ولو تركنا الحياة العملية وضجيجها ، وجاوزنا البيئات واختلافها ، ونسينا الصحف اليومية ودعاتها ، وسكنا فى دعة هادئة إلى أصحاب الأقلام الرفيعة من قادة الفكر فى كتبهم التى يؤلفونها عن روية وتقدير وبحث ، يدعون فيها إلى الخير ، ويبحثون عن الحق ، ويتطلعون إلى الجمال ، فعند هؤلاء نفتح بعض كتب الأدب فاذا بنا نقرأ فيه :

أن الفقر فى اللغة الضعف ، وأن الفقر كالضعف وزنا ونطقا ، فهو الفقر - بالفتح - والفقر - بالضم - كالضعف والضعف بهما » .

« وأصل الفقر لغة من كسر فقار الظهر وعقد سلسلته ؛ فيقال رجل فقير إذا كان مكسور فقار الظهر ، فالفقر ضعف بسبب قلة المال ؛ وكأنما المال هو العمود الفقرى للحياة ، وقد كسر فى من أعوزه ذلك المال إذ انكسرت

فقار ظهر حياته فسمى فقيراً ، كما سمى مكسور فقار الظهر الحسى فعلا فقيراً .

وأنك لتشفق ، بلا شك ، حين تقرأ هذا من بيان اللغة لأصل معنى الفقير ؛ فاذا ما تركنا كتاب الأدب القولى إلى كتاب الأدب العملى ، كتاب السلوك فإنا نقرأ فيه « خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعاً فى الجنة ضعفاؤها . . والفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس ؛ وتحفة المؤمن فى الدنيا الفقر . . إلى فصول فى مزايا الفقر ، بل فى فضله على الغنى فعلا ، تحفل بها كتب الصوفية المختلفة فى عصور متعددة .

وهكذا تبدو المسألة مختلطة مختلفة ، منذ قديم الزمان ، لا فى هذه الأيام فقط ، فى الحياة وواقعاتها أصل لما كتب فى الكتب والمؤلفات ، وما فى الكتب والمؤلفات مصدر ، لما فى الصحف اليومية والنشرات والدعايات ، يدل كله على تشابك عوامل متداخلة ، وتصادم نزعات متخالفة ، وتضارب آراء متحاربة ، تبعتها مصالك متغايرة ، ودعايات متنافرة ، وكل أولئك هو أصل المشكلة فى حياة الأفراد والجماعات ؛ وإنها لمشكلة خليقة بالوقوف عندها طويلا ، والنظر فيها كثيراً ، والتدبر العميق لها فى جد وقوة ، وما أحسبنا نهتدى لوجه الرأى الصائب فى مقاومة الأعداء الثلاثة وتفادى ما يسمى المبادىء الهدامة ؛ ولا أحسبنا نطمئن كذلك لإصلاح اجتماعى اليوم ، وإقامة للحياة على أساس سليم أمين ، مهما ننا الظفر فى مشاركة الدنيا حولنا فى حياتها الجادة .. لا أحسبنا نبلغ فى شيء من ذلك مبلغا ، ولا نتجه فيه وجهة سليمة إلا إذا ما تبينا أصل هذا التضارب الصارخ ، بل التنازع الحاد ، بين حس يرى الفقر كسرا للظهر ، وقول يرى الفقر فضلا يدفع إلى الجنة ! !

نعم . . إننا نحتاج أشد الاحتياج إلى مواجهة هذا التناقض البشع ، فى قوة وثقة ، لنستأصله من الأذان ، ونطب له فى النفوس والعقول ، طبا يستأصله ويقطع الطريق عليه ، حتى نستطيع بعد ذلك أن ندبر لواقعنا ، ونصلح وجودنا ، فيرجى لتدبيرنا وإصلاحنا النجاح ، وتكون دعوتنا صحيحة مستنيرة تؤيدها استجابة رشيدة ، وتحققها إرادة منفذة .

وفى سبيل تبين أصل هذا الخلاف الناشب ، نسلك ما اعتدنا سلوكه من النظر فى سير الحياة ، ومجرى التاريخ ، وهدى الفطرة أولا .. فإذا ماعرفنا من ذلك جملة الرأى فزعنا إلى هدى القرآن، آملين أن نجد عنده فيصلا للخلاف نرضاه ، وحاسما للنزاع نطمئن إليه ، ونقضى بحزم على هذا التناحر القديم.

ومن أجل ذلك سقت الحديث من هدى القرآن وجعلت عنوانه بعض كلمة القرآن الحكيمة ، التى تدمغ دعاة الفقر ، وتنفر من مزاعمهم فى فضله ، إذ يقول القرآن فى ذلك :

الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقْرَ .. وفى ظل هذا الشعار نمضى متفهمين نظرته الكاملة للفقر .

* * *

ونرى من سير الحياة ومجرى التاريخ ، أن الناس يحيئون هذه الحياة بنفوسهم وما فيها من شهوات ، وميول ، ورغبات ، من حب للمنفعة ، وعمل للمصلحة وحرص على الاقتناء ، وجنوح إلى السيطرة ، وما إلى ذلك مما تتميز به هذه البشرية على اختلاف ألسنتها ، وألوانها ، وأزمانها ، وأماكنها .

وقد ركبت تلك النفوس فى جسوم لها حظوظها المتفاوتة ؛ من الصحة والقوة ، والقدرة على المنافسة والتغلب ؛ وتحدد ذلك فى الناس وراثاتهم المحتكمة وبيئاتهم المسيطرة ، على نشوئهم ، ونموهم ، وتربيتهم .. فتختلف كذلك قواهم المعنوية من فهم وتعقل ، وإدراك وتدبر ، وتقدير وتبين . . وبكل أولئك الأحوال والقوى يتقدمون للعمل الكاسب ، والجد الرابح ، فتختلف باختلاف قواهم وطاقاتهم حظوظهم ، من خيرات الدنيا وحطامها ، وفوائدها ومغانمها باختلاف أنصبتهم من القوة المادية والمعنوية ، وتفاوت حظوظهم من وسائل الغلاب ، وأساليب المنافسة ؛ ولذلك يكون منهم الظافر الغالب الواجد الثرى .. وإلى جانبه يكون الخائب ، الفاشل ، المكدى ، الفقير . . ويتفاوتون ذلك التفاوت فى أبسط المجتمعات البدائية .

ثم يتطور مجتمعهم وشئونه ونظمه، فتزيد العقد وتثور المصاعب، بما يفرضه المتفوقون الغالبون، على المغلوبين المستضعفين، وما يلزمونهم به من تقبل سلطة واحترام تقاليد، فما هو إلا أن تتجسم الفوارق بينهم، وتمايز الفئات منهم وتتباين الطبقات فيهم .. وتحمى هذه الفروق والفواصل قوة القادرين وسلطة الغالبين، وما فى أيديهم من سلاح المال، وقوة الثروة نفسها.

وإذ ذاك يفزع المغلوبون المؤخرون إلى محاولة التعويض من أى طريق، والعمل للاستعلاء بأى وسيلة، فإذا هم يلتمسون أسبابا مختلفة، ومزاعم متغايرة يتقوون بها، ويروجون لها بكل مايستطيعون من السبل.

ومن أقرب هذه الوسائل للاستعلاء هذا التعالى العزوف، عما فى أيدى الأثرياء الغالبين، والترفع المستغنى عما فى أيدى الأغنياء الواجدين، وتتكىء هذه المحاولة على نفوس أولئك المحاولين بما يكبتون من رغباتهم، ومايقهرون من شهواتهم، فى صور من الزهد أو التزهد، وبأساليب من الفلسفة أو التفلسف تحتقر الدنيا وتتهمها، وتهون من أمر خيراتها، وتزدريها، وتمجد التجرد والعدم، وتشيد بالفقر.

وقد تتهم العقيدة الدينية عن العالم الآخر وكماله، ونعيمه وجناته، إلى جانب جحيمه وعذابه، بما يخفف الأمل الوثيق فيه من وقع الألم المرير فى هذه الحياة .. فهم بتدينهم وتخففهم أسبق إلى نواله، والمبادرة إليه، والظفر به، حتى ليدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام.

كذلك أوجدت طبيعة الحياة الفوارق، فقسمت البشر إلى أغنياء وفقراء وكذلك دفعتهم الحياة بفطرتهم إلى الاستعلاء الزاهد المعوض المسعف، فذهبوا بالفقر الراضى، والرضا الفقير، والتعلل المسكت؛ فكان التصوف لذلك نزعة عالمية عامة، يتلاقى عندها المتدينون على اختلاف الأديان، بل مع تقاتلها ويتجه إليها المؤمنون على تنائى الأوطان وتباعد الأزمان، ومع تناقض ما به الإيمان.

ومن هنا كانت فى الدنيا تلك الظواهر التى شهدناها آنفا . من حياة واقعية يختلف حسها بالفقر ، ويتفاوت حديثها عن الفقر بتباين ماتقوله فيه .. ومعها حياة عقلية ودينية يختلف تفكيرها كذلك فى الفقر ، وماتصفه به وتتغاير نظرتها وفلسفتها عن حظوظ الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وتحريم زينتها عليهم وتحليلها لهم .

ومن كل أولئك تخلفت فى تفكير الناس تلك الرواسب التى نسمعها فى حديث الإصلاح الاجتماعى اليوم من آراء ومقالات ودعايات .

ومن أجل ذلك كان من الحق أن أتحدث عن الفقر حين ألتمس هدى القرآن فى مشكلة المال من مشكلات الاجتماع ، لأتبين فى هديه منشأ هذا الاختلاف فى القول عنه ، من طبيعة الحياة ، وواقع المجتمع ، وفهم التدين .

وإن فى النظر لما بعد ذلك كله من التصوف الانسانى والدين الإسلامى والتماس القول الفصل فى ذلك من هدى القرآن لمجالا للنظر الدقيق فيما يلى ذلك من بيان .

١٩٥٠/٧/٢٥

* * *

الشيطان يعدكم الفقر

– ٢ –

أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

تمضى هذه الأحاديث ، من هدى القرآن ، فى مشكلات الاجتماع ، مطمئنة إلى أن هذا الهدى تدبير اجتماعى ، ورياضة نفسية ، صالحة للبقاء ، مسايرة للحياة ، تزيد جـــلاء ووضوحاً كلما زاد فهم الإنسان لنفسه ، وانتفاعه بتجاربه ، فيجد أنها رياضة جديرة بأن تجنبه شرور هذه الأزمات التى تعانيها الدنيا ، فى مبادىء متصارعة ، وسياسات متعارضـة ، ونظم للحكم متغايرة ، ومساوىء من ذلك كله ، يصلى الناس نيرانها .

وقد أشرف بنا القول ، على نظر هذا الهدى إلى الفقر ، الذى هو اليوم فى لساننا عدو محارب ، وأحد أعداء ثلاثة ، تجند الأجناد ، وتعد القوى والعتاد ، وتوضع الخطط ، لحربها ... مع أننا فى الوقت نفسه نسمع أن هذا الفقر لقب فخر ، لمن يسمون الصوفية ، ويدعون الفقراء ، وما شابه ذلك . . كما أن ناساً منا يتحدثون عن الإسلام ، يغبطون الفقراء ، ويدعونهم إلى الرضا به ، بل الابتهاج . . وبتلك التيارات المتضاربة تتشوش الأذهان ، وتضطرب النفوس ، فى وقت تحتاج حياتنا فيه إلى بعض الاطمئنان ، ولا سيما فى الناحية الاقتصادية ، التى نرجو أن نسير فيها بعض الخطا السديدة .

* * *

وقد تحدثت قبل الآن عن الفقر ، مستعيراً للعنوان ، قول القرآن « الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ » وبينت أن الحرمان ، واختلاف المواهب ، وتفاوت الدرجات بين الناس ، قد عمل كله ، على وجود حركة صوفية ، إنسانية

عامة ، عالمية ، انحاز إليها أتباع الأديان المختلفة ، فى الأعصر المختلفة ، فكان لهذه الصوفية العالمية صلتها بالإسلام ، وأثرها فى فهم هدى القرآن . ومن هنا لم يكن لملتمس الهـــدى القرآنى بد من النظر فيما خلفت تلك النزعة الصوفية ، من أفكار عن الفقر ، وما روجت من آراء بهذا الشأن ، لها خطرها الاجتماعى ، وأثرها الحيوى : خيراً حيناً وشراً حيناً .

* * *

ومن بقايا ذلك كله تلك الأقوال والدعايات المرددة بيننا اليوم على ألسنة الذين يتحدثون عن الفقر ، تلك الأحاديث المهنئة به والغابطة عليه ، فيدفعون الناس بذلك إلى غضب ساخط ثائر عدو للطمأنينة النفسية . .

وبهذا نريد هنا لنرى : هل بثت تلك الصوفية فى الإسلام حقاً هذه الروح المنصرفة عن الدنيا ؟ وهل غلبت بذلك حيويته العاملة ، لخيب الإســـلام بقرآنه فى مثل هذه المعانى ، عن الفقر ؟ وهل جعلت صوفية المسلمين يرون فى الفقر تلك الآراء حتى يحق للمتكلمين عن الإسلام أن يذكروا الفقر بما يذكرونه به ، ويوقعوا فى حياتنا الارتباك ، فتضطرب خطانا نحو الإصلاح الاجتماعى ، وتتبلبل فينا الخواطر ، بتأثير هذه الأقوال التى تقضى على الفقراء بالحاجة الضارعة ، وتترك لغيرهم الأنانية الجشعة ؟!!

إن هذا القرآن بفضل حيويته قد أنقذ صوفيته ، أو على الأقل أبقى فيها من يفكر باتزان فى هذه الناحية ، فتراه [1] يفرق بين الفقر وصنوفه ويرجع من ذلك إلى هدى حكيم ، وتدبير دقيق صالح ، فيقول :

إن نوعاً من الفقر قد فرض على الناس جميعاً . وما هو فى الحقيقة إلا فقر يجرد النفوس من جبروتها ، ويخلصها من طغيانها ، إذ يقنعها بضرب من الحاجة إلى قوة عليا ، تصغر أمامها كل قوة ، وتمحى كل غطرسة ، ويتضاءل كل جبروت . . فيلزم النفوس أن تشعر بالحاجة المطلقة إلى تلك القوة ،

---

(١) راجع احياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ١٦٤ وما بعـدها ط الحلبى .

وتفتقر فقراً مطلقاً عاماً ، هو ذلك الفقر الذى هتف به القرآن « يأيُّها النَّاسُ أنتمُ الفقرَاءُ إلى اللهِ . واللهُ هوَ الغنيُّ الحميدُ » . هو الفقر الدائم الذى قصره عليهم بقوله « والله الغنى وأنتم الفقراء » فقراء إلى فضل الله ، الغنى المطلق ، فلا غنى فى الواقع إلا غنى واحد . هو الله . . وكل من عداه محتاجون إليه ، ليمد وجودهم بالدوام . . فهم فقراء فى التمرد ، فقراء فى التجبر ، فقراء فى التفرد . وليسوا فقراء فى المال ، ولا فقراء فى الحرمان ولا فقراء بالحاجة الضارعة إلى إخوة لهم ، ومنهم ، مثلهم ، يذلونهم ، ويحطمون نفوسهم .

ومن هنا نرى أن هذا الفقر إنما هو فقر يصلح الأمر ، ويمنع الشر ويهدى القلوب ، ويهذب النفوس ، وأحبب إلينا أن نكون جميعاً فقراء بهذا المعنى ، دائماً أبداً .

وحين يلزم القرآن صوفيته بالفقر الصالح المصلح ، يجنبهم الرضا بالفقر المحرج المذل ، فإذا هم يسمون الفقر إلى المال إضطراراً ، كفقر الجائع الفاقد الطعام ، وفقر العارى المسلوب للكساء ، وما إلى هذا ... وهو فقر لا يلزمون به ، ولا أحسبهم يستمدون اسمهم منه ، حين يسمون أنفسهم الفقراء وأولاد الفقراء ، وإنما هم يسمون بذلك من الفقر المطلق ، العارف قدر نفسه الخاضع لجلال ربه . . وعلى هذا الفهم لنوعى الفقر استطاعوا أن يدركوا كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام يتعوذ من الفقر . ويقول : أعوذ بك من الفقر ، ويعده كفرا ، فيما ينقل عنه ، من قوله : كاد الفقر أن يكون كفرا ويثور على الفقر .. ومن قوم الرسول عليه السلام ، من يقول : لو كان الفقر رجلا لقتلته . . . ثم هو عليه السلام يحب الفقر ويتمناه ، ويدعو الله أن يحشر فى زمرة أهله ، وما إلى ذلك من المعانى التى لا تستقيم إلا على هذا الفهم لمعنى الفقر المطلق ، الذى بيناه ، فإنما أحب الرسول عليه السلام ذلك الفقر المطلق ، المؤمن ، الكابح لجماح النفس ، الشاعر بحاجته إلى قوة فوقه . فهو

يجنب من تحته قوته ، لأن قوة أعلى منها تردعها . . وإنما كره الرسول عليه السلام الفقر المضطر، المحتاج ، المذل ، القاتل للكرامة والآدمية ، الممزق للوحدة ، المثير للحقد ، والفرقة ، والفوضى ، والاضطراب .

كذلك ينبغى أن يفهم الأمر على وجهه ، ويجرى الإصلاح فى طريقه ويوصل الحق لأهله ، وتحترم آدمية الفاقدين ، فذلك هو النظام الاجتماعى فى الإسلام ، كما فهمه الصوفية أنفسهم حين سموا أنفسهم الفقراء .

وفى هدى القرآن من ذلك غناء .

١٩٥١/١/٢٠



الشيطان .. يعدكم الفقر

— ٣ —

وكانَ اللهُ غنيًّا حَمِيداً .

تظل هذه الأحاديث من هدى القرآن تتجه اتجاهات أساسية ، هى تقدير العامل الإقتصادى . وأن عليه مدار مشكلات السياسة ، والحكم . والحرب والسلم . . ثم تقدير للشعور الدينى ، وأن حديثه عن هذا الاقتصاد، إنما يضع فى النفوس أفكارا ومشاعر عن هذا العامل الاقتصادى الهام ، تمس نشاط الأمة ، ومنافستها الحيوية . وتؤثر على علاقات أفرادها ، وهيئاتها ، وكل أولئك مما يمس أكبر المساس عمل الحاكم السياسى ، ومهمة المصلح الاجتماعى ، بحيث يكون تقدير ما فى النفوس من ذلك كله ضروريا ، أشد الضرورة ، لأصحاب هذه الشئون الحيوية .

ولقد أشرت من قبل . فى فهم الفكرة الدينية . إلى تلك الحركة الصوفية التى أثرت على مختلف الأديان ، وكانت نوعا من التعويض النفسى ، فى صراع الناس على الحياة ، وقد عرفنا : أن وضوح الإسلام وحيويته ، قد حدّا من هذه الفكرة الصوفية ، حتى تهيأ لنا أن نرى من حديث أصحابها عن الفقر — وهم المنتسبون إليه — أقوالا فيه ، لا خطر منها على حيوية الأمة ، فى نضالها ومنافستها ، ولا على حقوق الطبقة المحرومة فى هذه الحياة الكريمة ، كما يريد أن يعصف بها أولئك الملوحون لها بمشهور أقوال الصوفية عن الفقر وفضله ، وحظ أصحابه من النعيم ، وتمنى الأنبياء والصالحين لهذا الفقر .

وعرفنا : أنه ليس هذا الفقر المعوز الجائع ، العارى المشرد ، بل هو الفقر الذى يحطم الضراوة البشرية ، ويكف غائلة الأنانية الآدمية ، فهو الشعور بالحاجة إلى القوة الإلـهية ، المدبرة للكون ، المسخرة إياه لهذا الإنسان .

وكما عرفت لهذه الصوفية أقوال فى تحبيذ الفقر ، ذلك التحبيذ الذى يضيع به مستغلوه حق الفاقدين المحرومين ، ويفسدون علاقة فئات المجتمع بعضها ببعض ، فقد عرفت للصوفية كذلك حملات على الغنى ، ليس منشؤها أيضا إلا ذلك التعويض النفسى ، عن الحرمان . . ولهذه الأقوال أيضا خطرها على حيوية الأمة ونشاطها ، ومنافستها العملية بين الأمم ، كما أن لها خطرها كذلك حين تستغل فى خداع الفقراء ، فتضيع حقوقهم ، وتفسد حياتهم ، وتترك أسوأ الأثر ، فى علاقتهم بالواجدين المحرزين فى المجتمع . . وذلك حين تستغل اقوال الصوفية ضد الغنى ، مثل استغلال أقوالهم فى تحبيذ الفقر . . وهذا ما نقصد إليه بالحديث هنا .

* * *

يتحدث هؤلاء الصوفية عن فتنة المال ، وجريمة حب الدنيا ، وعن حرمان الأغنياء من ملكوت السموات . . وما إلى ذلك ، من أفكار سيئة الأثر ، على نشاط الأمة وسلامها . وهى أخطاء يحسبها الناس هى الفكرة الإسلامية ، فى هذه الناحية . . مع أن الإسلام بوضوحه وحيويته — كما قررنا — قد ترك فى صوفيته ، من يقول فى هذا المعنى أقوالا أصلح للحياة ، وأبعد من أن تستغل ، فى إضاعة حقوق المحرومين ، هذا الاستغلال الخادع اللئيم . . وهذا الحق هو ما نريد أن نسمعه من الفكرة الإسلامية ، صوفية وغير صوفية ، عن الغنى والمال ، كما سمعنا من قبل الفكرة الصحيحة ، عن الفقر والحرمان . .

وفى هذا المجال نلحظ أن القرآن الكريم يصف الله تعالى بالغنى ، فهو الغنى الحميد . . والغنى الكريم . . والغنى الحليم . . والله الغنى وأنتم الفقراء . ومن أسمائه المعدودة . الغنى ، المغنى ، على حين لا نسمع من أسمائه تلك شيئا من الفقر ، وما فى معناه ؛ فليس من أسمائه الفقير . . بل إن القرآن قد اشتد على الذين قالوا : إن الله فقير فقال : لقدْ سَمِعَ اللهُ قوْلَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ ؛ سنكتُبُ ما قالوا وقتلَهُمُ الأنبياءَ بِغيْرِ حقٍّ ،

ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد — فهكذا سمى الله الذى ليس بظلام للعبيد — فلم يسم الفقير ، ولا المفقر . . فإذا ما قدرت قولهم العام ؛ فى وجوب التشبه بالله تعالى ، وإنما هو بقرب الصفات لا بقرب المكان . . وهو معنى أصيل مقرر عندهم ، تدرك به أن صفة الفقر واسم الفقراء ما داما ليسا من صفات الله ولا من أسمائه ، فليس من اليسير قبول القول بأنهما من الصفات ، التى يقرب العبد بها من الله ، ما دام هذا القرب لا يكون إلا بقرب الصفات . .

وندرك كذلك أن القرب من الله تعالى بقرب الصفات ، فى الغنى والإغناء هو مايكون من المؤمن . . وليس الغنى مما يعاب أبداً ، أو يكره فى الناس . .

وإن هذا التصوف — كما أشرنا — قد حمل للمسلمين آثار معتقدات ومقالات من بيئات مختلفة ، لكن حيوية الإسلام ووضوحه — رغم ذلك كله — قد أبقت فى أقوال المتصوفين المسلمين أقوالا سليمة عن الغنى : كما أبقت أقوالا صحيحة مقبولة عن الفقر ، وكلتاهما أقوال لا تفسد الحياة ، ولا تعوق الجد ، ولا تحد النشاط .

وكما سمعنا منهم عن الفقر أنه ليس الحرمان مما يضطر إليه الإنسان فى حياته ، فإنا لنسمع مثل تلك الأقوال الرشيدة فى الغنى ، حين نجدهم[1] يشبهون المال بالماء ، ويجعلون تناول المال كشرب الماء ، وهم يتلون من من قول القرآن « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . . وبذلك تستطيع أن تقول تتمة لتشبيههم المال : إن منه حياة الفرد حياة كريمة ، وإن منه حياة الجمع حياة عزيزة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

وليس من هذا إلا ما هو موضع تسليم وتصديق ، لا مجال فيه لإنكار أو جدل ، يفسد واقع الحياة المجرب .

---

(١) الغزالى — احياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٦٦ ط الحلبى .

وإذا كان الغنى صفة إلـهية ، والمـال كالمـاء ، فهل يكون الغنى ، وطلب المال بمثل ما نرى من ابتزاز ، واستحلال للحرام ، وامتصاص للدماء واحتباس شره نهم ، وإنكار لحق الله فيه ، وليس حق الله إلا حق المجتمع ، هل هذا هو الغنى الذي يسمى الله به ، ويقرب المؤمن منه بتشبهه به فيه ؟ . كلا .. كلا ، بل إن الغنى بهذه الأسـاليب هو الداء الدوى الذي يشفى منه الهدى الديني ، وهو الهدى الحكيم ، الذي أصـابت منه الصوفيـة ، بفضل حيوية الإسلام ، حظا يصلح النفوس ، ويدبر الشئون ، ويحقق سلام الفرد ، وسلام المجتمع ، وسلام الكون ، فهؤلاء الذين شبهوا المال بالماء ، قد أتموا هذا البيان بقولهم :[1] .

« إن الماء لا يشرب منه أكثر من الحاجة فأقوياء النفوس الصالحون لا يشربون من الماء أكثر من حاجتهم وينفرون مما وراءها ، ولا يجمعون المال في القرب والروايا يدورون بها معهم ، بل يتركونه في الأنهار والبرارى المحتاجين إليه » .

وهو من أبرع ما تقول البشرية اليوم ، حين تلتمس تحقيق العدل الاجتماعي ، وتنفر النفوس الكريمة من الجشع الحريص ، والاختزان النهم ، وتبين وظيفة المـال في حياة الناس .. وكما تحدث هؤلاء الصوفية ، بدقة كريمة ، عن المال ، والماء ، تحدثوا عن الغنى ، الذي يحق للإنسان أن يناله ، ويقرب به من الله . الذي صفته الغنى فقالوا :

إن هذا الغنى الذي يأخذ من المال كما يأخذ من الماء ، يستوى عنده وجود المال وفقده ، فإن وجده لم يفرح به . ولم يتأذ منه ، وإن فقده فكذلك . هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى ، لا في يد نفسه . فلا يفرق بين أن يكون في يده أو في يد غيره .. هو غنى عن فقد المال ، وغنى عن وجوده جميعا

---

(١) المرجع السابق .

وغنى عن دخول المال فى يده ، وعن بقائه فى يده : وعن خروجه من يده أيضاً .. فهو لا يتأذى بوجوده ، فيحتاج إلى إبعاده ، ولا يفرح به فيحتال لإبقائه ولا هو فاقد له . ليحتاج الى دخوله فى يده . . أما الغنى الذى كثر ماله وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال فى يده(١) .

وما وصفوه من الغنى هذا الوصف المترفع النبيل ، هو هذا الغنى الذى وصف الله به نفسه . . وهو عندهم مرتبة أعلى من الزهد فالزهد درجة ، هى كال الأبرار ، وأما صاحب هذا الغنى فهو من المقربين(٢) .. والفرق عندهم بين الأبرار والمقربين كبير فسيح ، حتى قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين وها هو ذا صاحب الغنى على هذا الوجه الذى يسعد الحياة يعد من المقربين الذين بينهم وبين الأبرار — الزهاد — هذا الفرق الكبير فى الدرجة والمنزلة .

وإذا كان هذا هو الفهم للمال فى الحياة ، والتقدير للغنى فى الدنيا ، فهل للمتحدثين فى الدين والحياة أن يجد جدهم فى إسعاد الوجود بهذا التوجيه، وهل لهم أن يبذلوا ما يستطيعون لتربية النفوس هذه التربية وأخذها بهذا السلوك النفسى نحو المال ؟ . .

وإن وقع اليأس من أن يكون الناس هكذا فى تناول المال — يشربون منه ولا يجمعونه فى القرب ليدوروا به — فاذ ذاك نقول :

إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن وحقا فى هدى القرآن أن يؤخذ الناس بالنظم التى تجعل فى المال تلك الحقوق المعلومة ، التى أساسها : أن المال فى خزانة الله ، وأنهم ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه : ويؤتون من مال الله الذى آتاهم .

ويا أيها المتحدثون عن هدى الإسلام :

تريثوا قبل أن ترسلوا أقوالكم عن تدبير القرآن لمشكلة المال .

هديتم بهدى القرآن .

١٩٥٢/٢/١٩

(١) ، (٢) الغزالى — الاحياء جـ ٤ ص ١٦٥ — ١٦٧ — بالمعنى الدقيق

القسم الثاني

لامذهبية

اشتراكية الإسلام

— ١ —

« للإسلام مثالية تتقبل كل إصلاح اجتماعى دون ضغط »

« الإسلام فى قوالب صناعية »

١ — الكتاب والمؤلف

كتاب « اشتراكية الإسلام » للسيد الأستاذ الدكتور مصطفى حسنى السباعى ، أستاذ الأحوال الشخصية ، فى كليتى الشريعة والحقوق ، ورئيس قسم الفقه الإسلامى ومذاهبه بجامعة دمشق .

كتاب نفدت نسخ طبعته الأولى فى أشهر قلائل وأعيد طبعه ، وتلقاه السادة المقدرون أعضاء جائزة الدولة تلقيا حسنا ، وقدروه تقديرا كريما .

والكتاب كما يقول المؤلف : يعبر عن رأى طائفة ثالثة وسط ، فى المجتمع الإسلامى ، تقف بين طائفة متطرفة ، لا تؤمن بصلاحية ما فى يد الأمة من التفكير الإسلامى لحل مشكلات هذا المجتمع .

وطائفة ثانية متزمتة سلبية ، تؤمن إيماناً غيبياً بأن فى الإسلام حلا لهذه المشكلات الاجتماعية كلها ، لكنها لا تعرف كيف يحلها .

وأما هذه الفئة الثالثة التى جاء هذا الكتاب صورة رأيها ، فتؤمن بأن

فى الإسلام الحل ، وتعرف كيف تقدم هذه الحلول لتلك المشكلات ؛ وكل مبادئها وقوانينها مؤيدة بأدلة من مصادر التشريع الإسلامى ، وهى تنادى بإحياء الدعوة إلى تلك المبادىء والقوانين ، بعد أن أهملها المجتمع الإسلامى أمدا طويلا . فهى أقرب إلى الفقهاء من أولئك المتطرفين المنكرين لقيمة ما فى يد الأمة — ص ٣٧٨ وما بعدها — وهى صاحبة تفكير ، يعوز أولئك المتزمتين ، الذين يؤمنون بأن الحلول فى الإسلام ، ولكن لا يقدمونها ، وتضع هذه الطائفة تفكيرها الاسلامى فى ظلال مبادىء ثلاثة :

١ — تحقيق النصوص الاسلامية لمصالح الناس ، فى كل ما يحتاجون إليه .

٢ — تحقيق هذه النصوص العادلة بين الناس ، حين تتعارض مصالحهم .

٣ — تحقيق التطور الاجتماعى الصالح ، فى المجتمع الانسانى .

كما تقف هذه الفئة الثالثة ، من مشاكل المجتمع البشرى ، موقف من يوجب دراستها دراسة عميقة ، ويختلط بالمجتمع ، اختلاطا شاملا ، لكل فئاته ص ٣٨٢ وما بعدها .

* * *

والذى اتصل بتاريخ الإصلاح الدينى ، فى العصور الحديثة ، بمختلف الأقطار الشرقية ، وبمصر ، والذى يذكر ما وجدت حياة مصر وتلك الأقطار ، من الجماعات الإسلامية ، التى مست الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية ، وأثرت عليها تأثيراً ، والذى يقدر مدى المعاناه التى تكابدها الحياة فى هذا العصر بسبب التيارات التى تغمر العالم بموجات من مواجهة الدين والتدين لها تأثير على حياة هذه الأجيال .. الذى اتصل بشىء من هذا الجو كله يقدر أن كتابا ككتاب « اشتراكية الإسلام » من مؤلف فى مركز الدكتور السباعى : ينبغى أن نؤدى فيه واجب النقد وأمانته ، حسب المبادىء الإسلامية نفسها على ماشرحته « الأدب » منها فى مناسبات كثيرة آخرها مافى عدد يونيو ١٩٦١ ؛ ولاسيما حين تقدر « الأدب » ، وهى لسان مدرسة

الفن والحياة أن الكتاب يمس الحياة الوجدانية والحياة العملية مساساً مباشراً قوياً ويحاول دفعها إلى التطور والتقدم فى جميع ميادينها النشاطية ، والميدان الفنى فى تقديرنا أشد تلك الميادين حساسية واستجابة وتأثراً وتأثيراً . . ومن هنا يكون هذا التقويم لكتاب اشتراكية الإسلام قريباقريبا واضحامن المناطق التى تجول فيها « الأدب » وتحقق فيها أهدافا . ومتصل برسالتها الحيوية اتصالا يوجب قيامها بهذا التقويم ..

لكل هذه الاعتبارات ومثلها معها يكون تقديم « الأدب » لتقويم هذا الكتاب تقديراً للكتاب والمؤلف بقدر ماهو وفاء بالحاجة النفسية والاجتماعية للمؤلف والجمهور ، من النقد على ما تؤمن به « الأدب » إيمانا راسخا . .

٢ ـ خطة النقد

وغاية التقويم التى نلتمسه من أجلها هى الانتهاء إلى رأى والاتفاق على حكم وهى غاية يبعدها بل يضيعها مايكون فى النقد — غالبا — من انتشار القول وتفرق الرأى لعدم ضبط النقاش بقواعده الصحيحة الدقيقة . لكننا هنا نطمع ونرجو ألا يقع شىء من هذا، لأن السيد الأستاذ المؤلف أزهرى النشأة ، أزهرى النزعة فهو بذلك بصير بآداب البحث والمناظرة عند القوم، وإليها يمكن الاحتكام فلا يقع بذلك شىء من آفة تضيع الغاية من التقويم والهدف من النقد .. ونرجو أن نلتزم هذه الآداب المقررة للبحث والمناظرة ونشير إليها عند كل مناسبة .

على أن آفة خاصة بمثل هذا الموضوع ذى الصلة بالدين ، وهى آفة تفسد الأمر شر إفساد .. وتلك هى ترك القول ، والاهتمام بالحديث عن القائل واعتبار الكلام عن القائل، وفى سريرته ونيته، أو خلقه وسلوكه أو خصوصياته

وشخصياته هو التقويم لقوله ، والنقد لرأيه ، مع ماقرر القوم وأكدوا ، من وجوب معرفة الرجال بالحق وعدم معرفة الحق بالرجال .

وعلى ذكر هذه الآفة أذكر بقاعدة القوم فى آدابهم وهى :

أن المناظر لامذهب له ، فاذا ما أوردت قولا ، أو رددت بفكرة ، فليس معنى هذا أنها مذهبى ومعتقدى ، ومن هنا يؤخذ بها المناظر ، وتلزمه فيما يلى من قول ورأى أو يعاب بها ويقدر ويترك الرأى والقول لهذا العيب والتشهير . .

ولعل هذه القولة السديدة تتكامل مع قولهم : ناقل الكفر ليس بكافر ، وعلى هذا لا مأخذ على مايرد من نقد لبعض قول السيد الأستاذ السباعى مهما يكن فيه ، من صور المخالفة لعقيدة ، أو نحله ، فلا يشتغل القارىء أو المنقود ، بشىء من هذا عن الأصل الجوهرى ، فيخوض فى عقيدة فلان أو دخيلته أو إخلاصه وما إلى ذلك مما لاعلاقة له بالقول والرأى ، بعد ماعرفنا من مقررات القوم فى أن مايذكره المناظر ليس يؤخذ على أنه مذهبه ، وعلى أن ماينقل من كفر لايجعله كافراً .

وعلى هذه الخطة ، نتقدم إلى تقويم كتاب اشتراكية الاسلام ، بادئين بالأيسر والأوسط فى ترق ، ينتهى إلى بحث الفكرة والنظرية ، وهل كملت أولا ؟ وهل أثبتت أولا ؟

وبهذه الخطة المتدرجة يكون أول حديثنا عن :

٣ ـ جفوة الأسلوب

وأنا ضجر بهذه الكلمة فى العنوان « جفوة » لكنها فى الحق أقل مايمكن تعبيراً عن شعور يملك نفسى من أسلوب السيد المؤلف فى تناول الأشخاص

والآراء عند المخالفة ، واعتذر عن خشونة هذه الكلمة بما سيجده القارىء من وقع أسلوب الأستاذ المؤلف .

أنه - مثلا - يقول فى صفحة واحدة - ص٧ - « ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذى يدل على جهل علمى وتاريخى فاضح قد أخذ يخفت » ثم يقول « لتحويل الأنظار التى جهلوها إلى الجهل الذى ألبسوه ثوب الحقيقة » . وهذا أخف من قوله - ص ١١ - عن نائب فى المجلس النيابى السورى ينكر اشتراكية الإسلام « فأجبته إنى لأعجب من جهلك بالإسلام وبالاشتراكية على السواء ، فلا أنت تعرف حقيقة الاشتراكية ، ولا أنت تعرف شيئا عن الإسلام فالدخول معك فى نقاش حول هذا الموضوع لا يفيد » .

فلئن قيل هذا سنة ١٩٥٠ كما يقول ، فقد كانت تبرد حدته سنة ١٩٦١ فينزه عن مثله كتاب يقدم فكرة ، لكن هذا أقل نوعا من مثل عنونته - ص ١٥١ - بعنوان « افتراء جاهل » . وقوله - ص ١٥٢ - « فادعاء أن الإسلام أقر الاقطاع جهل يستحق الازدراء ، وتضليل يستحق مدعيه الخروج من زمرة التلاميذ النابهين بله أن يكون من زمرة المؤرخين الاجتماعيين » .

ومثل هذا شائع يعقد فى جو الكتاب سحبا خانقة للفكر ، ناشرة الظلال السوداء على صفحاته مما يضعف الفكرة ولا يخدمها أبداً .

ولعل هذه الجفوة فى الأسلوب أثر لعدم الاطمئنان إلى مثل قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فانها تمهد لظاهرة أخرى فى الحكم والقطع نسميها .

٤ - جفوة الحكم

وسيتبين بعد أن هذا التعبير . بجفافه أقل ما يمكن أن يقال فى تقويم مثل قول السيد الأستاذ المؤلف :

١ — « ومن المعلوم أن فرض الزكاة بالنظام الذى جاء به الإسلام مر مبتكر لم يرد من قبل فى شريعة قط — ص ٢٩ — !! وهذا التعميم فوق الطاقة البشرية ، وهو يرد فى عبارات السيد كثيراً .

وبمثل هذا يحكم على ماوصفه من شئون إسلامية تلك الأحكام الواسعة المرسلة بمثل قوله ..

٢ — « ولهذا كان التكافل الاجتماعى فى اشتراكية الإسلام مما تميزت به هذه الاشتراكية الإنسانية الأخلاقية، عن كل اشتراكية معروفة حتى اليوم، ولو طبقت فى مجتمعنا لكان مجتمعا مثاليا لايدانيه فى رقيه أى مجتمع آخر » ص ١٨٥ .

كما يقول « بينما أعلن الإسلام نظامه الكامل الشامل للتكافل الاجتماعى قبل ثلاثة عشر قرنا » ص ٢١٥ .

وفى الصفحة نفسها : بل هى نزعة إنسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى إلى قريب منه عباقرة العالم بثلاثة عشر قرنا » .

وسنناقش هذه الأحكام فيما يلى بتوسع ، وإنما نلفت هنا إلى الأسلوب الخلابى المرسل بغير تحديد فى التعبير » .

ومن هذا الوادى قوله عن المبادىء الاشتراكية الإسلامية أنها طبقت فى العصر الأول ونجحت فى إيجاد دولة اشتراكية لم تبلغ ذروة نبلها دولة اشتراكية مافى عصرنا الحديث » !! ص ٢٨٢ — ومثل هذا كثير ..

٣ — يقول « . تكون أول مجتمع ـ لا فى الجزيرة العربية فحسب ـ بل فى تاريخ العالم كله . أخ » والحديث عن تاريخ العالم كله ليس من السهولة بهذه الدرجة !!

ومن هذا الوادى جزمه بأن التاريخ لايعرف — إذ يقول « من حيث نجزم أن التاريخ لا يعرف لأمة من الأمم غيرنا عشرات أمثالهم — العظماء — على مختلف العصور ، فمختلف العصور ، وكل أمة من الأمم ، والتاريخ كله كثير متساهل » ! !

ولا مجال لتتبع مثل هذه الأحكام التى تذكر يقول الأصوليين فى تخصيص عموم قدرة الله تعالى نفسه بالعقل فى مثل قوله « إن الله على كل شىء قدير » فيقولون: إن قدرته تعالى لا تتعلق بالمستحيل فالعموم اللفظى فى « كل » مخصص بالعقل ، أذكر هذا فأذكر المثل الطيب للدقة فى الحكم .. وهذا الانطلاق فى الأسلوب أو الحكم انطلاقا متعاليا يناقضه فى التفكير النزول إلى مستوى نصفه بكلمة تحت عنوان .

٥ — المستوى .. الهين

أى مستوى التفكير ، الذى يلتقط منه الباحث والدارس قضاياه وأدلته ، فيكون فى درجة عقلية ، تبتعد أو تترفع عما لا يكون من هذا المستوى ، لأن النزول عنه يهين الفكرة ، ويبرزها فى عين السامع لها ، بل يحقرها ، وهو ما نفرده من مناقشة دلالة هذه الهيئات نفسها ، لانا هنا ننكر هوانها فى الدلالة . ومن ذلك مثل قول المؤلف فى صدد بيان حفظ الإسلام للحياة ، تحت ما جعل عنوانه « حق الحياة » أن من ذلك :

— إيجاب تغطية الإناء المكشوف إذا كان فيه ماء أو طعام .

— النهى عن الشرب من فم السقاء خوفاً من أن تكون فيه بعض الحشرات .

— النهى عن الأكل أو الشرب أو قضاء الحاجة قائماً .

— استحباب شرب الماء على أنفاس متعددة — ص ٦٤ —

فهل من هـذا الأفق يتحدث إلى الناس من يمثل الطائفة التى تدرس مشكلات المجتمع البشرى دراسة عميقة ، وتختلط بالمجتمع اختلاطا شاملا لكل فئاته ! !

وهل ينسى الدارس المخالط أن فى المجتمع فئات تطالب الدولة بتوزيع اللبن معقما ، وقد صارت تنقية ماء الشرب عندها عملا بدائيا ؟ ! وهل يقال لكثير من أمثال هؤلاء فى المجتمع أن الأكل فى البوفيه ممنوع حفظا للحياة ! ! لا . . لا .

وليت السيد الأستاذ لا تدركه جفوة الأسلوب فيرسل القول ذلك الارسال السايب ويقول :

« ومن أروع ما جاء به الإسلام تأكيداً لحق الحياة وما يحفظها سقوط فرض الوضوء بالماء وانتقال الفرض إلى التيمم بالتراب ، حين يكون على الماء عدو مخيف أو حيوان مفترس ؛ ويمضى فى الامتنان والروعة فيبين أن ذلك التيمم يكون كذلك بديل الغسل حينما يكون أمر الماء كذلك أو حينما يكون استعمال الماء مضرا بالصحة — ٦٦

فما أكثر عدد من فى المجتمع ممن لا يقبلون أن يقال لهم : إن مسح الوجه بالتراب تأكيد لحق الحياة وحفظ لها . .

وإما أن يقال لهم : إن هذا من أروع ما جاء به الإسلام تأكيداً لحق الحياة وحفظها ، فهو فى الأسلوب كما ترى ! ! وهو فى التفكير نزول شنيع عن كل مستوى يكون فيه الكلام عن روائع الإسلام ! ! فإنها لدعاية من أسوأ ما يكون للإسلام ودعاته ، إذا كان من أروع ما جاء به تأكيدا لحق الحياة وحفظها إعفاء الناس من استعمال الماء عند التضرر به ! ! أما إستعمال التراب فقد زاد وعاد . . ! !

ومهما يكن الأمر فإن وضع غطا القلة على الماء ، وغطا الحلة على الطبيخ لا يبلغ به الأمر هذا التقدير . . ولا تنصر به قضية دين ، ووجهة تدبير ،

وخطة إصلاح اجتماعى ، مهما تهزل . . وشبيه بذلك غير قليل من مسائل لا يتسع لها المجال هنا .

ومن جرى قلمه بهذا الإكبار للبسائط لا يفهم كيف يجرى قلمه بأشياء كثيرة من :

٦ — التقدير . . المتهاون

يلق بهعظائم الأمور ، التى جهد الناس طوال الأدهار ، فى التغلب عليها ، فإذا به يتهاون فى أمرها أشد التهاون . أو يتجاهلها أعنف التجاهل ، أو يبسط من أمرها أبلغ التبسيط . فمن ذلك :

١ — يتحدث عن حق الحرية ، فيكون ذكر الرق الذى هو فى التفكير الاسلامى ، وفى الحياة الاسلامية العملية قضية تحتاج إلى فهم دقيق ودفاع حصيف . فإذا هى القضية التى يكتفى فيها السيد الأستاذ بقوله : إن الإسلام أباحه ، ولم يفرضه — ص ٧٩ — كأنه كان يتوقع من ختام الأديان أن يفرض الرق ويوجبه ، ويجعله أساساً من أسسه ! ! ! ويمضى عقب ذلك ليسوغه ، بأنه من معاملة المثل بالمثل ، كأن الاسلام جاء ليبقى الدنيا على ما هى عليه ، ما دام مبدأ المماثلة فى المعاملة هو المبرر لتدبيراته وتشريعاته . . ثم هو حين يتقدم نوعاً ما ليعقب على « معاملة المثل بالمثل » بقوله : مع تضييق حدود هذه المعاملة ، لا يلبث أن يضع كلمة مفردة هائلة الوقع ، إذ يصف معاملة المثل بالمثل بأنها المعاملة « الضرورية » ! ! فيجعل مقابلة الشر بالشر أصلا ضرورياً . . متهاونا بذلك فى تقدير الأثر الشنيع لجعل هذا المبدأ وجها دفاعيا عن الإسلام ! !

ويبدو التهاون فى التقدير عقب هذا الكلام أكثر وضوحا ، وأشر أثرا فى قوله عن الرق : هو عجز الرقيق عن ممارسة حريته الانسانية حكما ،

لا حقيقة ، كما يجرد بعض المواطنين المجرمين فى نظر الدولة من حقوقهم المدنية والسياسية — ص ٧٩ نفسها — فإنك حين تجاوز الحديث عن هذا القياس وصحته ، لا تستطيع أن تتجاهل الشعور المرير ، من هذا التهوين للرق ، بجعله نظير عقوبة غير عادية ، عفا عليها الزمن ، ثم هى جزاء جريمة غير بسيطة ، فما جريمة المحارب دفاعا عن وطنه أو دينـه حتى يسترقه محارب جاءه عاديا ! ! ويستخف بهذا الصنيع الذى يقلب الشخص والإنسان شيئا ومتاعا !!

والسيد الأستاذ فى حديثه عن الحرب فى الإسلام ، وهى أصل الرق لا يزال يلقى الأمر بهذا التقدير المتهاون ، فيكتفى — ص ٧٩ أيضا — بأنها مشروعة فى الاسلام للدفاع عن حرية الأمة فى وطنها ، وحريتها فى عقيدتها فحسب ، لا للعدوان على حرية الأمم الأخرى وعقائدها .

فهو بهذا التهاون فى تقدير أهمية القضية وعمقها ينسى أشياء تقررت وينسى أعمالا سجلت . ينسى القول المعزو للرسول عليه السلام . أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق .

وينسى دافعاً تاريخياً عن قتال المسلمين منذ اللحظة الأولى لجاوريهم من الأمم ليسلموا . . أو يسترقوا . .

وينسى بجانب ذلك أن الأمر منته بقوله هذا إلى مالا خير فيه ، وذلك أنه إن كانت الحروب الإسلامية التى استمرت أجيالا ، وبدأت منذ العصر الأول ، واستمرت صوائف وشواتى كل سنة ، يقال فيها : إن كانت هذه الحروب دينية ، فقد وقع الإكراه فى الدين ، الذى أنكره الأستاذ المؤلف — ص ٨١ — مقرراً « أنه لم يعط أحد حق إكراه إنسان على عقيدته » . . وإن كانت حروب دولة لا حروب دين فقد كانت توسعاً

بلا شك ، لا مجرد دفاع عن حرية الأمة الإسلامية فى وطنها ، وحريتها فى عقيدتها ، ومثل هذه الحرب التى تنتهى بالاسترقاق توقع هذه العقوبة القاسية ، الشبيهة بعقوبة حرمان المواطنين المجرمين فى نظر الدولة من حقوقهم المدنية والسياسية — كما يقول المؤلف فى تهاون — فتوقع هذه العقوبة على من لم تكن جريمته إلا الدفاع عن وطنه وأمته ! !

وقد قلت هذا للسيد المؤلف بلسان من يريد أن يقوله ، بياناً لتهاونه فى التقدير ، تهاوناً جعله يعتد مثل هذا دفاعا سائغا وكافيا عن قضية الرق !! والحق أن يسمع السيد القول ، دون أن يعنيه أمر القائل ! ! كما تقرر من خطة القوم فى أدب البحث . ولى هنا مقال فى هذا الدفاع لا يقوم على مثل هذا التهاون فى التقدير ، لكن ليس هذا مجال تقريره . .

ومن هذا التهاون فى التقدير أن الأستاذ المؤلف — ص ٧٣ — يمتن على الأرقاء بأن الإسلام لم يبح قتل الرقيق ، ويعد من فضل الإسلام وسمو اشتراكيته الإنسانية حماية الحياة للإرقاء ، فلم يبح قتل الرقيق إلا إذا جنى وقتل غيره ! .

ولو كان الأرقاء بلاليص قديمة مكسورة لما فكر الناس فى تحطيمها ورميها بهذه السهولة ، التى يجعل بها المؤلف عدم إباحة قتـــل الرقيق فضلا للإسلام وسمواً !!

ومن ذلك التقدير المتهاون :

(ب) قوله فى تقرير الحرية الدينية فى الإسلام — ص ٨٠ — أن تلك الحرية الدينية قد قررتها اشتراكية الإسلام على أسس تكفل قيام هذه الحرية ووجودها فعلا لادعوى : وهذه الأسس التى يعدها هى : تحرر العقل من الخرافات والأوهام ، وتحرر الإنسان من سلطان التقليد ، وما طلب

إليه من استعمال عقله والتأمل فى خلق السموات والأرض ، وأخيراً إعلان حرية الإنسان فى عقيدته ، من حيث يمنع الإكراه عليها ، ونتيجة لهذا المبدأ ترك غير المسلمين فلم يجبروا على تنفيذ شريعتنا فيما لهم فيه تشريع خاص .

ويرى السيد الأستاذ هذا الكلام البعيد عن موضع الألم كافيا فى تقرير الحرية الدينية . لأن الإنسان قد طلب إليه التأمل فى خلق السموات .. تاركا ما يطلب إليه من أن يسلم أو يقتل إذا كان عربيا ، أو يدفع الجزية إن كان غير عربى ؛ وتاركا أن المسلم المرتد عن إسلامه يقتل !! فهل هان هذا كله ، حين عظم أمر التأمل فى خلق السموات والأرض ، فعد موصلا لحرية التدين ؛ وعظم ترك الذمى على شريعته العملية ، فعد مظهراً لحرية التدين ؟ !

هذا هو ما يدعى هنا — فى أدب — تقديراً متهاونا .

ومما هو من هذا التهاون فى التقدير ، أو من تجاهل مالا يقبل تجاهله من مثل الأستاذ المؤلف ، قوله :

(ح) وفى وسط رمال الجزيرة العربية عاشت فى الدنيا مرة عاصمة دولة لاتعرف الحقد ، ولا الاستئثار ، ولا البغى ، ولا الفجور ، ولا القسوة ولا موت الضمير — ص ٣١٠ — يقصد بذلك جماعة المسلمين على عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

وتسمع هذه العبارة الخلابة ، الفضفاضة فتثير فيك إنتباها خاصا لما كان يعانيه هذا المجتمع إذ ذاك من النفاق والمنافقين ، الذين أفردت لهم سورة خاصة من القرآن ، غير الذى تفرق من حديثهم فيه ، والذين دار تاريخ العهد المدنى على تحركاتهم ، وعانت منه الدولة الإسلامية التى عاشت فى الدنيا لأول مرة ، فى وسط رمال الجزيرة العربية ، معاناة قاسية .

وأى شىء يكون النفاق الملعون إذا لم يكن حقداً ، وقسوة ، وموت

ضمير ، وإنه كذلك لفجور ، وبغى ، واستشار . . بل هو فوق ذلك كله نذالة جبانة ! !

فهل يتجاهل الأستاذ المؤلف هذا كله ، وهو يرسل فى تفسح عباراته التى لم تزد فى وصفها سابقا على أنها جفوة فى الحكم .

ومما التقى فيه هذا التهاون فى التقدير ، والتجاهل لما لا ينسى :

(د) قول السيد عن الحرية العلمية فى الدولة الإسلامية — ص٨٤ وما بعدها — أن ميدان النقاش كان الكتب والحلقات والمجالس العلمية فحسب لا السيف ولا السجن، إلا مرة واحدة فى تاريخنا ، ويذكر خلق القرآن وما ثار حوله ، قائلا : إن التاريخ يذكرها بمرارة وأسف ، ثم يتعرض من بعد ذلك لما حصل فى زمن على من مقاومته لابن سبأ وجماعته . . كما يذكر ما حصل فى عهد المهدى العباسى لمقاومة الزنادقة ، ثم يشير إلى حالات نادرة فى العصور المتأخرة ، كما وقع لابن حزم ، ولابن تيمية .

يذكر هو نفسه هذا من المتقدم والمتأخر ، وفى الشرق والغرب ، متهاونا فى تقديره ، مقرراً معه فى عباراته المتنفجة ، الحرية العلمية .

وهو فى هذا السياق يقول — ص٨٥ — ولم يقع أن تدخلت الدولة — وخاصة فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة — ضد الآراء المهاجمة للإسلام والمخالفة لتعاليمه . . الخ ، متجاهلا أن الدولة فى القرون الأولى ذبحت الجعد ابن درهم تحت المنبر ، على أنه أضحية الوالى ، حين ضحى الناس بالشياه ، وقد فعلت الدولة شبيه ذلك بالحلاج ، كما اضطهد غربها فى الأندلس ابن رشد وأهانه ، وكل أولئك مما لا يتجاهل ؛ وما قاله الأستاذ المؤلف ، وما قاله التاريخ ، وما لم يقله يجعل تقديره تقديراً متهاونا ، ويتطلب منه عرض الأمر عرضاً آخر ، ليس هنا مكان وصفه وشرحه .

وأشباه هذا الذى ذكرنا من التقدير المتهاون غير قليلة فى الكتاب ، أو هى كثيرة ، ويزيدها تنافراً أنها تجتمع فى الكتاب مع المستوى المبين ، الذى يهول فى أشياء يسيرة كخطأ القلة ، وغطا الحلة . .

ويتلو هذا التجاهل فى سوء الأثر ما يصح أن يسمى : —

٧ ـ الإغفال المضيع

إذ يعرض لشئون اجتماعية ، لا تزال مشكلات اليوم ، فى حياتنا ، فيشرئب القارىء إلى ما سيلقاه منها ، ويتتبع فى حرص ما يرد عنها فلا يبلغ من ذلك مأربا ، فمن ذلك مثلا :

(ا) تطبيب الفقراء أو مشكلة العلاج الآن، يعرضها الأستاذ المؤلف عرضا منبها ، إذ يعد ما يتعلق بحفظ الصحة — ص ٦٥ - فيقول :

« جعل الشارع من مهمة الدولة تطبيب الفقراء ، وتيسير العلاج للناس، كما سيأتى فى قوانين التكافل الاجتماعى » فنتنبه لذلك ، ونمضى فنجده — ص ١٢٠ — يتحدث عن كرامة المنزلة الاجتماعية للإنسان ، فيجعل من مظهرها الإيجابى » عيادته عند المرض » فنسأل وماذا فى العلاج ؟

ثم يعرض الأستاذ المؤلف لقوانين التكافل ، ويسميها قوانين التكافل المعاشى ، ولا يقتنع بتسميتها التكافل الاجتماعى ، التى اصطلح عليها الغربيون ، لأن هذا التكافل فى الإسلام أوسع دائرة وشمولا مما عند الغربيين فتلتمس ما قررته هذه القوانين التكافلية المعاشية — لا الاجتماعية فقط — فإذا السيد الأستاذ المؤلف يعنون : — الفئات التى تستحق التكافل ، وهى فئات تتميز بالعجز ويقول عنها : وقد وضعت لها القوانين التى تعين أحكامها — ص ١٨٦ — ؛ ويسرد ذلك سردا فى عمود، فترى رقم ٢ « قانون المرضى » وتسأل ما هذا القانون ؟ وما مواده ؟ وماذا أكسب الفقراء ، من حقهم فى

التطبيب وتيسير العلاج ، وجعل الشارع إياه من مهمة الدولة ؟

لم أجد فى الكتاب جوابا ما عن هذه الأسئلة ، ولا كلاما ما عن قانون المرضى المسرود فى القوانين ، على حين تجد كلاما غير قليل — ص ١٦٠ — عن قانون الماعون ، وتسليف الإبرة للجارة ، وإعارة المحلة والدلو . . ! !

فأين ما جعله الشارع من مهمة الدولة فى تطبيب الفقراء وتيسير العلاج للناس ! وكيف نظم ذلك ؟ وكيف نفذ ؟ .. ثم انظر إلى مكان شىء من ذلك فى كتاب اشتراكية الاسلام .. فما وجدت إلا عظة عن عيادتهم وهم مرضى ، وقد عدت عملا إيجابيا فى كرامة منزلتهم الإنسانية . . وذلك ما استحللت أن أسميه « الإغفال المضيع » ! رغم ما يقوله السيد بأسلوبه الخاص — ص ٢٥٣ — : إن إشتراكية الاسلام فى تقريرها للحقوق الطبيعية الخمسة ، وما وضعته من قوانين التكافل الاجتماعى تحارب الفقر ، والمرض والجهل ، والخوف ، والمهانة » .. وحسن هذا وجميل ، ولكنى لم أجد فى جعل الشارع تطبيب الفقراء وتيسير علاج الناس مهمة الدولة ، إلا مثل ما ينقله عن البدائع — فى ص ٢٠٨ — عن القسم الرابع والأخير من قانون الخزانة العامة ، عدا لما يوضع فى بيت المال من أنواع الأموال ، فإذا من بينها :

« الرابع : ما أخذ من تركة الميت ، الذى مات ولم يترك وارثاً أصلا أو ترك زوجا أو زوجة فقط ، ويلحق به الضوائع التى لم يعرف أصحابها ، وتصرف هذه الأموال إلى دواء الفقراء المرضى وعلاجهم ، وأكفان الموتى الذين لا مال لهم ، وإلى اللقيط ، وعقل جنايته ، وإلى نفقة من هو عاجز عن الكسب ، وليس له من تجب عليه نفقته ، ونحو ذلك » اه منقولا عن كتاب البدائع فى الفقه الحنفى ، مع تلخيص للسيد الأستاذ المؤلف وترتيب »

هل هذا هو كل مهمة الدولة فى تطبيب الفقراء وتيسير علاج الناس ؟ وكل مورده هو تركة من لا وارث له ، والضوائع التى لم يعرف أصحابها . وهذا المورد الجدب ينفق منه على جهات وجهات ، وحسبك الانفاق منه على العاجزين عن الكسب؛ فهل يكفى هذان الموردان الناضبان من الضوائع وتركة من لا وارث لهم ، لهذا الإنفاق وحده ؟ وكيف تكون إلى جوانبه اللقطاء ، والموتى ؛ وعقل الجناية معطوفا عليها ، ونحو ذلك ، وماذا يبقى لدواء الفقراء المرضى ، وعلاجهم ! !

لقد ضيع المؤلف مشكلة العلاج لم يقصد لها بدرس ، وضيع ما فى الإسلام من عناية بهذه الناحية الطبية ، حين جعل ذلك موردها !!

ومن ذلك :

(ب) مشكلة مكافحة الأمية ، التى لا تزال حية فى مجتمعنا ، وكان علاج اشتراكية الإسلام لها ، قد يهدى السبيل إلى حلها ، ولكنها ليست أحسن حظا من مشكلة المرض التى رأينا إضاعتها ، فى عرض الأستاذ المؤلف للتكافل الإسلامى .

لقد أعلن الأستاذ فى أحكامه المتوسعة — ص ١٠٢ — « أن الرسول — ص — قد أعلن مكافحة الأمية قبل أن تعلنها الدول المتحضرة فى عصرنا هذا بأربعة عشر قرنا ، وإن هذا لعجيب أن يصدر من نبى أمى ، فى بيئة أمية ، لولا أنه رسول الله » .

وواضح أن دلالة هذا على الرسالة وصدقها ليس موضع مشاحة ، وإنما الكلام هنا عن هذه المكافحة الأمية ، ونظامها ، ووسائلها ، التى سميت بها مكافحة .

وهو يعتمد فى هذا كله على قول الرسول عليه السلام للأشعريين : ليعلمن

قوم جيرانهم ، وليفقهنهم ، وليعظنهم ، وليأمرنهم ، ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ، ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة — ص ١٠٠ — ودعك أيضا من أن هذا التعليم والتعلم المطلوب هو تعلم الدين وتعليمه ، أى المرحلة الإلزامية من التعليم ، التى تسمى مكافحة الأمية . . وأسأل الأستاذ المؤلف : ماهى العقوبة التى وضعت فى النظم الإسلامية ، والواقع الإسلامى لمن لا يعلم أو من لايتعلم ؟ . . مع عبارة الرسول — ص — المؤكدة «لأعاجلنهم العقوبة » ، ومع أنك أنت حينما أوردت العبارة ثانيا ، فى سياق الشرح ، زدت عليها قيد « فى الدنيا » — ص ١٠١ — وقلت « أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا » مع عدم ايرادك هذا القيد فى نص خطبة الرسول عليه السلام .

وبعبارة أوضح فى السؤال : هل نظم هذا التعليم والتعلم تنظيما عمليا يجعله مكافحة ، أو شيئا قريبا من هذا المعنى العملى الإيجابى الجاد ؟ ! ! أو هو حث دينى ، على ما يؤديه المسلم لجاره المسلم ، لا بما تنظمه الدوله والمجتمع ! !

وهل يتفق هذا الوضع الخلقى الوعظى المكتفى بواجب المرء نحو جاره ، مع ما قررته غير مرة ، من « أن الإسلام لم يقتصر على المواعظ والوصايا الأخلاقية ، فذلك مما لا يؤثر فى سواد الشعب غالبا ، إلا أن يكون معه قوانين واضحة تحدد الواجبات ، وتحميها دولة ترهب المسيئين ، وتأخذ على أيدى الظالمين ، وتحمل الذين لا تجدى فيهم الوصايا والمواعظ على تنفيذ تلك القوانين ، سنة الله فى استقامة الحياة وانتظام المجتمعات » — ص ٥٣ — .

وهل كل ما ذكرته عن شرف العلم ، ووجوبه ، و . . و — يتجه إلى التعليم المدنى ، الذى يساوى ما دعوته مكافحة الأمية ، التى سبقنا الناس فيها بأربعة عشر قرنا ؟ أو هو ، كما تجهر نصوصك المنقولة — ١٠٨ مثلا — يتجه إلى العلم الدينى ، كنقلك : إن من تعلم الصلاة ليعلم الناس أحكامها أفضل ممن تعلمها ليعمل بها ، وإن طلب العلم والفقه إذا صحت النية أفضل من جميع أعمال البر ، وإن تعلم العلم المفروض أولى من تعلم باقى القرآن ، فتلك

وغيرها موجهات واضحة إلى أن الكلام عن العلم الديني ، وإذا ما قدرنا ما نقلته من أن تعلم ما يلزم الحياة من العلم فرض كفاية ، فإنا نتذكر معه — ص١٠٦ — نقلك أن « الجمهور على أن تعلم ما هو فرض عين أفضل » ، وفرض العين هو العلم الديني — ص ١٠٤ و ١٠٦ — .

وحين نسأل عن التنظيم العملي الإسلامي الذي وسعك معه أن تقرر تشريع مكافحة الأمية ، والسبق إليها ، نجد نقولك تهز كل ما ذكرت عن شرف العلم ، ووجوب العلم ، وحق العلم ، وأشباه ذلك من تكثرات ، وتوسعات ، فني — صفحة ١٠٦ — « وما عدا هذين النوعين من العلم فهو مندوب أو مباح !! كتعلم ما زاد عن فرض العين من شئون الدين ، أو تعلم ما قام به غيره ، من فروض الكفاية ، فإن ذلك مندوب ، وكالتوسع في الثقافة من مختلف العلم فإنه مباح ، وإذا اقترنت به نية التقرب إلى الله ، أو خدمة المجتمع فهو مندوب » .

وهل ترى تقرير إباحة العلم ، يتفق في شيء مع ما ذكرت من وجوب العلم وشرف العلم . . الخ ، مع أن التساؤل لا يزال يجري عن الإباحة أو عدمها !!

وبعد فقد وجدت في مكافحة المرض مورداً ضئيلا ضعيفا مشتركا يصرف منه الأدوية للفقراء !! أما هذا التعليم فلم تزد فيه على وجوب أن يعلم الجار جاره ، وله الأجر والثواب . . ومثل هذا ، والكثير منه ليس مكافحة ، ولا ما يشبهها .

وليس بهذا ومثله مما هو كثرة ما في الكتاب تخدم الفكرة الإسلامية ، فضلا عن أن تسمى اشتراكية أو نحوها !! بل على غير هذا الوجه تعرض.. وفي الإسلام كل المقدرة على إصلاح الحياة .

وإذا جاوزنا هذه الملاحظة العامة ، إلى حدّ ما ، لننظر في الموضوعيات والمنهجيات فسنرى من ذلك أشياء :

٨ ـ ملاحظ منطقية ..

والمنطق ميزان .. واهتزاز هذا الميزان فى كتاب « اشتراكية الاسلام » يبدو فى غير صورة واضحة واحدة ، فمن ذلك :

١ — إرسال الدعاوى اليتيمة ، دون دليل عليها . وأظهر ما يبدو فيه ذلك ما سميناه « جفوة الحكم » وهو يلقاك منذ الصفحة الأولى من الكتاب قائلا عن العالم الإسلامى فى القرون الوسطى : « حضارة زاهرة ، وتجارة مزدهرة ، ومستوى كريم من العيش ، تتجلى فيه الرحمة والتعاون والتكافل الاجتماعى بأروع صوره ومعالمه » — ص ٥ —

وتظل تجده فى فترات متقاربة من الكشف حتى تقرأ فى الصفحة الأخيرة عن الشريعة الاسلامية :

« .. وهى الشريعة الوحيدة التى لم تعن بشىء من أمور الحياة الدنيا بمثل ما عنيت بأمر التملك والكسب وتنظيم وسائلهما ، وضمان كرامة المعيشة لكل فئات الشعب وطبقاته » — ص ٢٨٨ —

فأروع الصور والمعالم وكل الفئات والطبقات .. وأمثال ذلك أحكام خطابية استهوائية . قد رأينا حتى الآن فيما تقدم — على تدرج فى النقد والتقدير — انها قضايا لا تجد — فى سهولة — أدلتها ، وما يركزها فى نفس القارىء بل تجد من هذه المبالغة المسرفة ما يصد عنها ، ويوهن من أمرها .

ومهما يكن فى هذه القضايا من حسن المقصد ، وطيب القلب ، وصادق الغيرة ، فإن ذلك لا يشفع فى الميدان العلمى ولا ينفع ، وهو فى تاريخ تفكيرنا كان مرحلة دعت إليها دواع اجتماعية ، أما اليوم فقد شب هذا التفكير عن الطوق ، وثارت حوله أعاصير اجتماعية تجعل مثل هذه

التوسعات تحدث فيه عكس ما يطلب لها من آثار .. وليس هذا مجال التعليل الاجتماعى ، بأكثر من الاشارة العابرة .

ومن صور اهتزاز الميزان :

(ب) أن لا تذكر القضية بعكسها ، لتداع بينهما فى التناول الإسلامى؛ فالسيد الأستاذ مثلا يقول فى — ص ٦٠ — عن عدم الدخول إلى الأرض الموبوءة أو الخروج منها : « فكان ذلك أول إعلان لمبدأ الحجر الصحى فى العالم » !!

وهذه القضية فى الميدان الحديثى تتداعى ذهنياً مع حديث : لا عدوى ، ولا هامة ، ولا طيرة ولا صفر ... ويحوج الأمر فيها إلى إلتماس التوفيق . لأن نفى العدوى يتكرر بقوة فى الحديث .. وكان الأستاذ المؤلف من أقوى الناس شعورا بهذا التداعى بين المعنيين — نفى العدوى . وإمكان نقلها — وكان مثل هذا الشعور جديرا بتخفيف القول عن هذه الأولية ، والعالمية !! ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، ولا أثار التفات المؤلف

(ح) أن يحمل الكتاب فى مكان ما ينقض ما قرره فى مكان . ومن ذلك مثلا أنه يقول — ص ٢٥٣ — : « إن اشتراكية الإسلام تطبق على جميع المواطنين فى الدولة مسلمين أو غير مسلمين » فيصرح ذلك بأن حق غير المسلمين فى بيت المال ، الذى هو مرجع هذه الاشتراكية واحد . والأستاذ يقول — ص ٢٠٢ — عن الزكاة : إنها تجمع حصيلة كبيرة جداً ، كما يقول عنها فى الصفحة نفسها : « إن للزكاة ميزانية خاصة فى بيت المال ، بحيث لا تطغى على التكافل الاجتماعى النفقات الأخرى للدولة ، كما يقع الآن فى ميزانية الدولة فى عصرنا الحاضر » .

وإذا ما كانت الزكاة هى الحصيلة الكبيرة جداً . وهى التى تفرد فى بيت

المال للتكافل الاجتماعى لئلا تطغى على التكافل النفقات الأخرى ، فمعنى ذلك أن اشتراكية الإسلام ، التى هى فى جوهرها ذلك التكافل الذى دعامته الزكاة لا تطبق على جميع المواطنين فى الدولة مسلمين وغير مسلمين ، إلا إذا كان لغير المسلمين حق فى الزكاة والتكافل الاجتماعى بها ، ولكن الأستاذ المؤلف — ص ٣١٥ — يحرص على أن ينص فى تعليقة خاصة على أن غير المسلم لا يأخذ من مال الزكاة ويقول ما نصه : « . . وأما إعطاء الزكاة لغير المسلم فنحن نرى فى ذلك رأى الجمهور من عدم الجواز . أما صدقة التطوع فهى جائزة » . .

وإذا ماحرم غير المسلم من دعامة التكافل ، فهل يقال مع ذلك ما قيل فى تمييز اشتراكية الاسلام : أنها تطبق على جميع المواطنين فى الدولة ! ! وهل جواز إعطاء غير المسلمين صدقة التطوع يحقق هذا التطبيق ! !

وإذا كنا قد رأينا فى مكافحة المرض ضآلة المورد حتى ما يكفى أقل نسبة مئوية ، ورأينا فى مكافحة الامية ألا مورد مخصص لها ، فما قيمة هذه الدعوى فى التطبيق على غير المسلمين والمسلمين مع حرمان غير المسلمين من المورد الأكبر ! !

ومن صور الاهتزاز :

(د) أن يحمل الكتاب فى المكان نفسه وذاته ما ينقض المقرر فى هذا المكان ، ومن ذلك مثلا : أن المؤلف ذكر — من ١٨٧ إلى ١٩٨ — مايسميه قوانين التكافل المعاشى ... وتناس معى ما فى بعض ما سمى قانونا من التفاهة والهوان كقانون الماعون الذى يسلف الإبرة ، والقدر والدلو للجار ، واذكر أن فى القانون معنى العموم والاطراد والإلزام ، فكيف يسمى المؤلف قانون الضيافة ، وهو يذكر بعد هذا العنوان بسطر : أن الضيافة

عند أكثر العلماء سنة — ص ١٨٨ — فأين معنى القانون فى عمل لا عقاب على تركه ، ولا تأكيد فى طلبه !! بل هو لا يجاوز المجال الوعظى الخلقى !!

ومن ذلك أيضا ما سماه قانون المشاركة فى شيء من الثمار والزروع ، عند الجنى والقطاف ، بطرح شيء من السنبل والشماريخ للمساكين — ص١٨٩ — وهو فى الصفحة نفسها ينقل اختلافهم فى أن ذلك واجب أو مندوب ، وإذا بلغ الأمر إلى حد الندب فبم يسمى قانوناً !!! .

ويتحكم فى القلم حس الفن فيأبى إلا أن ينفر من التعبير بطرح شيء للمساكين ، ويحس منه مساسا موجعا بإنسانيتهم !!

ولا يتسع المجال — بعد هذه الإطالة — لأكثر من هذه الأمثلة على اهتزاز الميزان فى البحث والتقرير .. ولننتقل بعد ذلك إلى مسائل موضوعية أخرى هى :

٩ — ملاحظ فقهية

والسيد الأستاذ المؤلف فقيه أصيل ، والفئة التى يمثلها من مفكرى الاسلام اليوم أقرب إلى الفقهاء ، كما قال هو ، وطبيعة هذا البحث عن اشتراكية الإسلام أن يعتمد على التشريع الإسلامى قبل كل شيء ، وأكثر من كل شيء . : فالاهتمام بالفقه فى تقويم كتاب اشتراكية الإسلام ، من أوجب الواجب .

وأحب أن أبادر فأعلن أنى لا ألزم الفقيه الجليل بأن يكون مقلدا ، فليخرج ، وليرجح بل ليكن مجتهد مذهب ، أو ليكن مجتهدا مطلقا ، فلن أنكر شيئا من ذلك عليه ، بل لن أطالبه بشرح النظرة الأصولية التفصيلية التى يقيم عليها مذهبه حين يمضى مجتهدا مطلقا . . لن أطالبه بهذا الشرح ، ولكن لا مفر لى وله من أن أطالبه بما قال القوم قديما من التخلية قبل

التحلية ، فيخلى المقام من الأفهام القديمة للقوم ، فى بعض الأحاديث أو الآيات ، ليستطيع أن يضع مكانها غيرها ، ويجد له المكان دون أن تشوش عليه المقررات القديمة التى توافر لها الحفظ والتأليف ، والتدريس والتداول ، وجللتها هيبة العمر .

وهذه التخلية ـ وهى أقل المراتب ـ لم يقصد الأستاذ المؤلف إليها، بل جاء يعلن رأيه دون تعرض لمقرراتهم فيها، وظهر ذلك فى صور متعددة فقهية المعالم ، فمن ذلك :

١ — فهم النص فهما مخالفا ، دون إشارة الى الفهم المغاير الذى تقرر قبله ، بأجيال ، فالأستاذ ـ ص ١٣٢ ـ يسوق حديث : « الناس شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار » . وفى حديث آخر « والملح » وفى ص ١٣٣ ـ يقول : قواعد الشريعة تقضى بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع ، لا يصلح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه ، إذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور إليه ، بل يجب أن تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور » .

يقول هذا تحت عنوان تأميم المواد الضرورية ، فلا تشعر أن هذا الكلام يصل به إلى هذه النتيجة وهى التأميم ، ومنع الناس من ملكية هذه المشتركات بل ينتهى فقط الى حد إشراف الدولة على الاستغـــلال منعا لتأذى الناس بالاحتكار ، كما تبيع على المحتكرين بالأسعار المناسبة . . ولكننا ندع هذا الآن وننظر فقط إلى فهم الشركة فى الماء والكلأ والنار ، وتفسير ذلك ـ ص ١٦٣ ـ بقوله : إننا نرى تأميم الكهرباء والمياه وبعض المواد الغذائية مما يحتمه الحديث : الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار ، والملح . . والماء هو مصلحة المياه اليوم ، والنار هى مؤسسة الكهرباء فى عصرنا الحاضر والكلأ والملح أمثلة للمواد الضرورية التى لا يستغنى عنها إنسان ما » . .

فقوله هذا بتحتيم الحديث تأميم هذه الأشياء ، وتفسير الماء بأنه شركة المياه، والنار بأنها شركة الكهرباء ، هو الذى نطلب اليه أن يعرج قبل تقريره على فهم القدماء للشركة فى هذه الأشياء . وجواز تملكها أو عدم جواز ذلك وهل الماء فى الحديث هو الماء المستنبط المنقى ، المخزون ، الموجه فى المجارى أو هو غير هذا؟ وهل النار هى الكهرباء المولدة بعلم وعمل ونفقات كبيرة أو هى غير هذا ؟

ونذكر الأستاذ الفقيه ببعض قول الفقهاء ، وهو أقرب اليهم من سواه ، ونختار على ذكر القرب بلديه الفقيه المعروف القريب الزمن أيضا «ابن عابدين» اذ يقول ـ جـ ٥ : ص ٢٨٦ وما بعدها ط بولاق ـ «المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ والنار ـ أى شركة إباحة لاشركة ملك ، فمن سبق إلى شيء من ذلك فى وعاء أو غيره وأحرزه فهو أحق به : وهو ملك له دون من سواه ؛ يجوز له تمليكه بجميع وجوه التمليك ؛ وهو موروث عنه ، وتجوز فيه وصاياه . وإن أخذه أحد منه بغير إذنه ضمنه ؛ ومالم يسبق إليه أحد فهو لجماعة المسلمين مباح . ليس لأحد منع من أراد اخذ الشفة» ـ والشفة شرب بنى آدم والبهائم ـ وهكذا مضى ابن عابدين فقرر فى مواضع متفرقة من الصفحات التى أشرنا إليها ، أن الماء المحرز فى الأوانى ينقطع حق غيره فيه حق الشفة ـ أى الشرب ـ ويقول فى النار والكلأ مثل ذلك . بعد أن قرروا أن الشركة بين المسلمين فى هذه الأشياء شركة إباحة لاشركة ملك .

وأعود فأكرر : إنى لا أدافع عن هذا القول ؛ ولكنما أوجب على متفهم الحديث المذكور أن يرد هذا الفهم أولا ثم يفهم غيره كما يتطلب ذلك المنهج العقلى العام ، والمنهج الفقهى الخاص . .

ومن صور المخالفة الفقهية :

(ب) استعمال القياس باصطلاح القوم دون وفاء بما رسموا فيما هو مفهوم قياس التمثيل الفقهى ، بل المنطق أيضاً ؛ وذلك إذ يقيس التأميم على الوقف ويقول ـ ص ١٦٠ ـ :

« ومن المعلوم أن الوقف جائز فى الإسلام ، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية ، التى تحدثنا عنها فى قوانين التكافل الاجتماعى والوقف كما عرفه الفقهاء هو إخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها إلى ملك الله، أى أن تكون غير مملوكة لأحد، بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم وهذا هو التأميم » .

ويبدو أن هذا القياس للتأميم على الوقف قياس مع الفوارق لا مع فارق واحد.. وذلك أن الوقف إخراج من المالك، والتاميم إخراج من غير المالك ، فالوقف إخراج لعين مملوكة لمخرجها، والتأميم إخراج لعين غير مملوكة لمخرجها، والوقف قد تخصص فيه منفعة العين على الواقف نفسه وذريته من بعده ، بحيث إذا لم ينقرضوا لم يصل شيء من المنفعة - فعلا - إلى أحد سواهم، والتأميم لا يكون إلا تخصيصاً للمنفعة بالمصلحة العامة والاجتماعية دون سواها . .

وهكذا لا تجد فى قياس التأميم على الوقف الأصل والفرع والعلة المشتركة بينهما ، وهى أركان القياس الشرعى، وكل ما يمكن أن يكون أثرا لهذا القياس هو إمكان اخراج عين الى ملك الله مع جعل منفعتها لفرد أو جمع . . ولكن إذا ثبت امكان هذا الوضع شرعا فهل يثبت حق المؤمم فى التأميم واخراج ملك الأفراد هذا المخرج ؟ !

مفهوم التأميم

وليس من البعيد أن يكون مفهوم التأميم غير واضح عند السيد المؤلف فكان هذا سببا لإجراء مثل هذا القياس وغيره من أقيسة أخرى نشير إليها .

فأما عدم استبعادنا اشتباه مفهوم التأميم فقد يرجحه قول المؤلف - ص ١٩٥ - تحت عنوان التأميم - : « فإذا أدت الملكية الشخصية لهذه الأشياء الماء والكلأ والنار - إلى أن تحبس عن الناس ، أو يتحكم مالكها فى ثمنها

أو توزيعها .. كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لإشراك الناس جميعا فى الاستفادة منها تحقيقا لمعنى الشركة الواردة فى الحديث . وذلك يعنى التأميم أو تدخل الدولة فى تحديد الأسعار ا هـ بلفظه .

وواضح أن التأميم ليس تحديداً للأسعار فحسب ، ولكن يظهر أنه على هذا الفهم قاس السيد الأستاذ التأميم على الاحتكار — ص ١٦١ — كما قاسه مرة أخرى على حماية الحمى فى المرعى — ص ١٦٠ — .

وعلى سبيل الاستيفاء نقول : ان التناقض الذى وجدناه فى المنطق العام نجد مثله فى المنطق الفقهى الخاص فإن السيد الذى سمى التأميم تحديد أسعار ، ليجوزه لم يلبث أن كره التسعير الذى تتطلبه الى حد كبير مصلحة عملية ككثرة الخلق مثلا أو قلة الشىء — ص ٢٤١ — فهذا أى التسعير — الى الله والزام الخلق ألا يبيعوا إلا بقيمة بعينها إكراه بغير حق ، ! !

وهو يعلق فى هذا الموضوع بما عبارته :

« هذا يتفق مع أحداث الآراء الاقتصادية « قانون العرض والطلب » .. ولم يقدر أن تحديد الربح فى هذه الحالة منعا للتلاعب وانتهاز فرصة كثرة الطلب يكون من واجب الدولة الاجتماعى ، وما يتطلبه الاقتصاد الموجه الذى لا يترك قانون العرض والطلب يمكن من الشطط الذى نكرهه .. كما فعلت الجمهورية العربية المتحدة حين ضعف محصول الفول مثلا فى هذا العام فقل الشىء وكثر الخلق وكان الحل فى هذه الحالة منع تحكم قانون العرض والطلب بالتدخل فى تحديد الطلب . فاستولت على الشىء وتوسطت فى توزيعه وحددت سعره .

ولو قد طبق ما اطمأن اليه الأستاذ المؤلف من أن التسعير منه ماهو ظلم لا يجوز ، ومن عده قلة الشىء أو كثرة الخلق سببا لاعتبار التسعير أو الاستيلاء . أو العمل مطلقا على حفظ مستوى السعر ، اكراها بغير حق .. لهدم هذا

من أصل التسعير فى أحرج الأوقات وأكثرها اقتضاء للتسعير .. وهو مالا يتفق مع فهم التأميم بأنه مرادف لتحديد الأسعار على ماقرأنا فى عباراته المنقولة عن صفحة ١٥٩ .

بل هو مايعد بحق صورة لعدم اتساق العالم الفكرى الفقهى نفسه .. وللأستاذ المؤلف قياسات أخرى متعددة لايقرها المعنى الأصولى للقياس ، والاستعمال الفقهى للقياس ، مثل : قياسه تحديد ملك الإنسان للمال على تحديد ربحه فى المال . وقياسه تحديد الملكية على تحديد زراعة العنب فى قرية اعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذ منه عصير للخمر ـ ص ١٦٩ ـ .

ونكتفى مضطرين بالإشارة القصيرة لهذه الأقيسة دون بيان عنها لأن المجال لم يعد يتسع لبيان مفصل .

كما نمسك مضطرين عن القول المفصل . أو نرجىء هذا القول الى غير هذا المجال ، ليمكن فيه القول عن ملاحظ أخرى فى صنيع المؤلف الفاضل .. وتلك الملاحظ هى :

١٠ — ملاحظ تاريخية عن الواقع الإسلامى الذى وصفه .

١١ — ملاحظ لغوية فى فهم آيات من الكتاب الكريم استشهد بها

١٢ — ملاحظ فى صناعة التأليف وسلامتها .

نترك ذلك كله ونتقدم — على استحياء — لنتحدث فى إيجاز — قدر الإمكان — عن تمثل الفكرة العامة ووضوح هذا التمثل لها ، متسائلين :

١٣ — هل تحققت بالكتاب فكرة عن اشتراكية الإسلام

فقد تقدمت ملاحظ فى تقويم كتاب «إشتراكية الإسلام» وأشير الى ملاحظ أخرى فى تقويمه ، وكل ذلك يوجه إلى الكتاب بما هو مجموعة من الحقائق

معروضة مهما يكن المراد بها، والهدف من عرضها، أما الآن فيراد تقويم الفكرة العامة فى الكتاب، والهدف العلمى من وضعه، تحديداً لمنزلته، وتقديراً لبلوغه ما أريد له من هدف، وإيضاحا لما تمثله مؤلفه من فكرة فى الموضوع الذى تناوله، وأين تقع هذه الفكرة بين الأفكار والآراء؟ وهل هى فكرة متكاملة متماسكة أولا؟

وأياما ماكانت فأين تقف بين الأفكار؟ أتقليد هى وترديد لأشياء سبق القول بها؟ أم هى ابتداء واختراع لجديد غير مسبوق؟

والإجابة عن هذه الأسئلة كلها، بل عن بعضها تقتضى تحقيق المبـــدأ القديم الجديد معاً فى كل بحث، وذلك المبدأ القديم الجديد هو قول سقراط لتلاميذه: حددوا الألفاظ التى تستعملونها.. واصطلاح النظارين فى قومنا بعبارتهم: تحرير المراد.

وهذان المتضايفان — اشتراكية... وإسلام — يقتضيان فهم كل واحد منهما فهما محرراً.. والمضاف إليه يخصص المضاف أو يعرفه، ففهمه أسبق، وهكذا نسأل:

١ — ماذا أراد الأستاذ المؤلف «بالإسلام»، وقد يبدو السؤال غريباً، لكن هذه الغرابة ستزول سريعاً، إذا ما قدرنا أن الإسلام دعوة عامة وخالدة، فهى بحكم السنن الكونية متطورة، وقد فهمه أصحابه قديماً، ثم تغير فهمهم هـذا على الزمن، وهو اليوم بين أيدى أصحابه، يفهمونه، إن بعقل الأمس البعيد أو القريب، وإن بعقل اليوم، واستشراف الغد.

ومن هنا نسأل الأستاذ المؤلف: أأراد بالإسلام فهم المفسرين والفقهاء والمتكلمين له إلى الوقت الذى أخرج فيه كتابه إشتراكية الإسلام متقيداً بهذا الفهم ملتزما حدوده؟ أم أراد بالإسلام فهما يمتد إلى مابعد هذا الوقت الذى عاشه قبل أن يعد كتابه؟

إن الأستاذ يذكر — ص ٩ — فهم روح الإسلام على وجهه الصحيح ، فتوشك أن تظن له فهما متجدداً يخالف أو يغاير ما سبق من فهم الأولين . لكنه يقول — ص ١٠ — إن ما يعرضه فى هذا البحث هو التشريع الإسلامى . . هو تطبيق ذلك التشريع نظريا فى أحكام الفقه ، وعمليا فى تاريخ الدولة الاسلامية ، فى مختلف عصورها ، كما يقرر أنه وفئة من المفكرين أقرب إلى الفقهاء — كما أشرنا — .

وهذا أول اختلاف تفترق به الطريق بيننا ، وهو ما يبدو به تقويمنا لعمل الأستاذ متجهما ، أو قاسيا على الإسلام ، غير معجب بالصورة التى تعجب المؤلف .

وذلك : أنى أفرق بين عمل الناس ، وواقع تاريخهم ؛ وبين حقيقة الإسلام ، وجوهره الأصيل ، الباقى الصالح للدوام والخلود .

وبذلك لا أعتبر صنيع القوم ، ولا واقع التاريخ شهادة على الإسلام ، بقدر ما هو شهادة على المسلمين ، فإن كان فى تطبيقهم للإسلام ما يساير أصوله تلك الباقية المثالية فذاك ، وإلا فذنبهم فى ذلك على جنبهم ، وليس على الإسلام إثم شىء منه .

وواضح أن هذا القول بعدم التزام تطبيق الماضى ينتهى إلى عدم التزام فهم هذا الماضى للإسلام ، والتقيد به ، والوقوف عند حدوده التى وقفت بطبيعة الأمور عند المستوى العقلى والاجتماعى لأهل هذا الماضى . . وكأنى بهذا أريد فهم الإسلام فهما جديداً ؟ وهو ما قدر رجوته للأستاذ المؤلف حين قلت له سابقا : كن مجتهدا مطلقا إذا شئت .

وهنا يتجسم الفرق الأصيل ، وتتباعد الطرق بى وبالأستاذ المؤلف ، وذلك أنى أفهم الإسلام فى أصوله الثابتة الصافية فهما يفرق بين واقعيته التى سايرت أزمان أهله الماضين ، وبين مثاليته التى تفتح الطريق لسير الباقين

المخالفين من أهله . . ولهذا الفهم أصول ومبادىء ليس هنا بيانها . . وهى موضع درس ونشر متصل منذ عهد بعيد . ولعلها تظهر كتاباً مفرداً عن « تجديد الدين » .

وما أردت بهذه الإشارة هنا إلا أن أدل على الطريق الذى أصل منه إلى نتائج آصل عليه ، وأكثر عموما ، وأصلح للبقاء ، وأبعد عن إلزام الإسلام قالبا معينا ، ومذهبا مسمى ، لأنه أبعد مثالية من هذه المذاهب ، وأبعد مدى من ملابساتها الخاصة . وهو بمرونته وبعد أفقه يدعم كل إصلاح اجتماعى ، دون أن يلون بمذهب معنون ، ولون معين .

واذا ما خرجنا بأن الأستاذ المؤلف يلتزم الفهم المقرر قديما للإسلام ويستند الى الواقع التاريخى العملى للمسلمين ، فإنا على هذا الأساس نفهم المضاف ، وهو « اشتراكيته » .

فماذا أراد السيد بكلمة الاشتراكية ؟ أهى النظرية الاشتراكية بما هى مذهب بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؟

هل أراد أن الإسلام يقرر الحقوق والواجبات على أساس النظرية الاشتراكية ؟ .

هل أراد أن الإسلام ينسق الحياة الاقتصادية أو السياسية على أساس النظرية الاشتراكية؟

وهكذا مما هو أخذ بالمبدأ والمذهب وتقرير له ، وإلزام به ، لا يعدوه ولا يأخذ بغيره ؟ بل هو متميز به ، مؤيد له ، مقاوم لما عداه من المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؟

ويبدو من الكتاب أنك تجيب مطمئنا أن : لا . . ولم يقصد المؤلف الى هذا المعنى العلمى النظرى ، المبدئى ، الفكرى . وهو صريح القول فى هذا

إذ يريد بالاشتراكية — ص ٩ — نزعة إنسانية . . هدفها منع الفرد من استغلال رأس المال . . وإشراف الدولة على فعالية الفرد . . وتحقيق التكافل الاجتماعى . . الخ .

كما يصرح فى الصفحة نفسها بأن المبادىء الاشتراكية الأساسية من التأميم ، وانتزاع رأس المال . وتحديد الملكية . والضرائب التصاعدية ليست فى تقديره هى الاشتراكية . بل كلها وسائل لتحقيق هدف الاشتراكية الاجتماعى .

وإذن فهو لا يريد بالاشتراكية فى عنوان كتابه : النظرية ، والمذهب ، والمبدأ ، بل يريد التطبيق العملى ، والنتائج الفعلية ، بقطع النظر عن كونها أثر مبدأ ملتزم ، أو صدى نزعة إنسانية وعاطفة كريمة رفيقة .

وإلى هنا ليس فى الكتاب فكرة عن مذهبية اشتراكية فى الإسلام ، بل فيه بيان لاتجاه إلى الهدف الرقيق . الذى قد يتحقق فى كل مذهب رأسمالى أو أى مذهب يكون ؟ لأن المهم عنده هو الأعمال الخارجية ؟

بل هو يؤكد هذا المعنى فى عدم القول بمبدئية أو مذهبية ، أو نظرية اشتراكية فى الإسلام ، حين يقرر أنه يستعمل كلمة الاشتراكية لحب الناس لها ، ويقول — ص ١٠ — بعد ذكر الهدف العلمى السابق : « فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم العدالة الاجتماعية ، أو التكافل الاجتماعى ، أو محاربة الفقر . أو ما أشبه ذلك ، أما نحن فنسميه بالاسم الذى يحبه الناس ويرونه أملهم الوحيد فى الخلاص من شقائهم ، واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، وبذلك نكون قد امتثلنا أمره تعالى « أدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالموْعِظَةِ الحسَنَةِ » وما هى الحكمة إن لم تكن دعوة الناس إلى الحق والخير ، بأسلوب يصغون اليه ويأنسون به » . . فالكتاب عمل دعائى ، وعظى . . لا علمى نظرى .

ثم نحن عند هذا الرأى من الأستاذ نسأل بعد ذلك :

هل قدم من الإسلام النظام العملى المحقق للأهداف التطبيقية الخيرية ، بقطع النظر عن المذهبية النظرية الاشتراكية ؟

أو هو إنما بين استعداد الإسلام لتقبل وضع هذه النظم والتشريعات المحققة للهدف ، وأنها لم توضع بعد تماما وفعلا فى التشريع الاسلامى !

إن الأستاذ المؤلف قد قال – كما سبق – : إن بحثه هذا هو التشريع الإسلامى ، وتطبيقه نظريا فى أحكام الفقه ، وعمليا فى تاريخ الدولة الإسلامية فى مختلف العصور كما قال مع هذا – ص ٣٦٩ – « إنه – أى الإسلام وضع نظاما اشتراكيا . واضح المعالم ، مستقلا عن الشيوعية ، وعن نظم الاشتراكية ، وعن الرأسمالية » .

ولكن أحقا قدم الكتاب هذه التطبيقات الفقهية ، فى نظام اشتراكى كامل ؟ أو هو قد قدم فى ذلك آمالا أحيانا . وقدم أحيانا مبادىء عامة تصلح لوضع تشريعات تحقق تلك الأهداف ، وفى غير قليل من الأحيان كانت تلك المبادىء التى يقدمها خلقية وعظية ، ولا تحرسها قوة قانون ، ولا تنفذها سلطة ؟

الحق هو أن الكتاب لم يقدم هذا النظام التشريعى كاملا ولا ناقصا ، بل قدم كما قلت الأمل أحيانا كقوله – ص١٦٧ – « ولو استمر الإسلام فى سيره الطبيعى ، ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الاشتراكى العظيم ، لظلت أراضى الشام ومصر والعراق ، كما كانت ملكا للدولة يشتغل الناس عليها بخراج المقاسمة . وبذلك تكون بلادنا أول بلاد فى العالم طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقبة الأرض ، هذا المبدأ الذى نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا فى الربع الأول من هذا القرن » ا هـ . . وصدق الأول حين قال : « زرعو لو فى أرض ليت » . . ؟ !

ومع مثل هذا التمنى قدم إمكان استخراج مبادىء، لسن تشريعات لحقوق العمال – فقال فى ص ١٥٣ — ومع ذلك فقد جاء فى النصوص التشريعية ماهو خاص بالعمال ، وما هو شامل لهم ولغيرهم مما يمكن أن يستخرج منه مبادىء لسن تشريعات لحقوق العمال ، ترتفع عن مستوى التشريعات المعمول بها لدى الدولة الحديثة . . الخ الموال المعتمد فى السبق والتفوق والارتفاع عن كذا وكيت . . . مع أن التفكير المذهبى النظرى لغيرنا ، والإغراء بالتطبيق العملى لغيرنا ، فليس من جد القول أن نرسل مثل هذه العبارات الطفلة فى مقام علمى تقرر فيه حقائق ويرد كل شىء إلى أصله ! !

والأستاذ المؤلف فيما يقدم مما يسميه مبادىء تصلح لسن تشريعات يعتمد كثيراً على تحقيقات وعظية، وفى تكلف غريب — كما سبقت الإشارة – وهو فى هذا السياق عن حقوق العمال يذكر شرف العمل بالمعنى المادى الاصطلاحى ، فيستخرج شرف العمل من آية « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى الله وَعَمِلَ صَالِحًا » ، ويعقب بقوله : « والعمل هنا وفى آيات كثيرة جاء شاملا للعمل الدينى ولغيره ، وهو فى عمومه يشمل العمل الصناعى – ص ١٥٤ فهل تطمئن النفس فى سهولة إلى مثل هذا الكلام !

وهو يذكر أن العمل نعمة لقوله تعالى : « لِيأكلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أيْدِيهِمْ أفَلاَ يَشْكُرُونَ » !

ويذكر أن العامل مسئول لقوله تعالى: « وَلَتُسْألُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تعْمَلونَ » ، وهكذا مما تملأ الكتاب شواهده ، على أن دعوى وضع نظام اشتراكى كامل فى الفقه الإسلامى لا يسندها إلا الكثير من جرأة التكلف .

ومما سمعت – دون باقى مافى الكتاب من هذا – تقدر قيمة ادعاء الأستاذ المؤلف – ص ٢٥٤ – أن اشتراكية الإسلام لم تكن نظرية فحسب . . ولا عاطفية تعتمد على استدرار شفقة الأغنياء ، كلا . . بل هى عملية مقرونة

بالتشريع الذى يطبق على النـاس جميعا ، كبقية قوانين الدولة . . ولم تـكن كـذلك فحسب، بل كانت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة الإسلامية ، منذ قيامها فى القرن السابع » .

ولقد تقدر قيمة هذا الادعاء بالربط بين هذه العبـارة الأخيرة عن الاشتراكية التى كـانت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة الإسلامية منذ قيامها وبين عباراته هو التى سمعتها قريبا عن انحراف ولاة السوء ، وعدم استمرار الإسلام فى سيره الطبيعى . . ومثل هذه العبارة كثير فى الـكتاب يغنى عنه قليله الذى ورد فى هذا القول .

وهكذا لم تـكن « الاشتراكية » فى قوله وبحثه نظاما عمليا كاملا ، وليست إلا نزعة إنسانية رحيمة ، تضمنتها الخلقيات الإسلامية ، وسارت بها الوعظيات الإسلامية ، وقدمت مايصلح أساسا لسن تشريعات . . فماذا بقى من هذا المعنى ليضاف إلى الإسلام بخاصة فى العنوان ، اشتراكية الإسلام !!

لعله لم يبق شىء حتى فى شعور المؤلف نفسه ، بعد أن قال - ص ٣٦٩ - وأعتقد أن الأديان سبقت الشيوعية إلى الرحمة بالبائسين ، والإنصاف للناس والرغبة فى تحقيق العدالة بين الجماهير ، ولـكل ديانة وسائلها الخاصة بها فى تحقيق هذه الأهداف . . ويتمم هذه العقيدة فى نفس المؤلف ما بدا به الـكتاب من الفصل المعنون ، موقف الأديان من الفقر » واستغرق صفحات كثيرة فلم يبق مايضاف للإسلام من معنى هذه الاشتراكية المشتركـة إلا ماهو خاص بالوسائل الإسلامية المميزة ، التى ينفرد بها الإسلام بين الأديان فى تحقيق الأهداف التى تزعمها الاشتراكية المتطرفة أو المعتدلة ، وهو أمر أهون من أن يوضع له كـتاب ضخم . .

والـكـتاب نفسه لم يقصد إلى بيان وسائل الإسلام الخاصة به فى تحقيق الأهداف الإنسانية ، التى يتميز بها عن سائر الأديان .

وإلى هنا يستطيع القارىء أن يجيب نفسه عن سؤال : هل تحققت بهذا الـكـتاب فكرة عن اشتراكية الإسلام ؟

الأساس الديني للعدل الاجتماعي[1] :

عِزَّة الإيمان

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . .

ما أنتم هؤلاء فى شرقكم المعنى ، تذودون الطير عن شجره ، وتدفعون الغاصب عن حياضه . . تلتمسون الوجود الكريم ، وتبغون الحياة الشريفة ، وتستردون الماضى المجيد ، فأجدى ما أحدثكم به ، عن الإسلام وهديه ، حديث يحفظ الحيوية ، ويرفع المعنوية . ومن أجل ذلك اخترت أن أحدثكم عن العزة النفسية . .

. . ونريد لنرى أولا ما تتجه إليه الحياة فى هذا المعنى ، وما تسلكه لذلك من سبيل . . ثم ننظر بعد ذلك إلى الخطة الإسلامية فى هذا الشأن فندرك قدرها ، إدراكا واضح الأساس ، بين الوجه ، فى غير ادعاء ولا تحكم .

وإذا ما نظرنا إلى سير الحياة قديما وحديثا وجدنا قادة الأمم اليقظة ، وأولى الأمر فى الشعوب الناهضة ، يحرصون دائما على أن يبعثوا فيها الشعور بالعزة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويتخذون لذلك الوسائل المختلفة ، تقوية للشعور بالعزة وتأصيلا له ، حتى يبلغ مرتبة العقيدة — ويدفع الناس إلى العمل الجليل والأمل البعيد . . فيستعينون على بلوغ ذلك ، أو الكثير منه — بأساليب من العلم حينا ، ومن الفن حينا ، ومن التدين كذلك . . يأخذون بها الناشئة منذ مطلع وعيها ، ويلفتون إليها الكبار فى كل حين بالطرق المؤثرة . . فأنتم ترونهم فى هذا السبيل يشيعون فكرة الامتياز الدموى ، والتفوق العنصرى ، والفارق اللونى .. إذ يقررون أن جنسا أفضل

---

(1) نختتم الكتاب بهذا الفصل تأكيدا لقوة الاســــاس الذى يقدمه التدين لحل مشكلة المال ، ذلك الحل الذى قلنا فى الاهداء : انه الحل الذى تطمئن له القلوب بهدى القرآن ، الذى هتف بارادة مصر الخالدة — فى مايو ١٩٥٢ — ((**لن تقهر أمة آمنت بعزتها النفسية**)) .

من جنس، ولونا أكرم من لون، وقوما أكرم من قوم ويصطنعون لذلك ما يصطنعون من آراء ونظريات، يحاولون أن يضفوا عليها ثوب العلم وطابعه. وقد جاءكم من صنيع الألمان حديثا ما جاءكم، وسمعتم ترتيبهم للأمم، ومنازلها عندهم، وأرقام درجاتها فى رأيهم.

ومن هذا الصنيع بسبب تفسير التاريخ وأحداثه تفسيرا خاصا حريصا على أن يشهد لشعب بأنه خدم الحضارة وأفاد المدنية بما لم يخدمها به غيره ولم يفدها إياه سواه، فيركز فى نفوس أفراد هذا الشعب المفضل. شعورا بالعزة النفسية، تركيزا يثير حميته، ويقوى حيويته، ويدفعه إلى طلب المنزلة التى تلائم فضله، وتفوقه بالأمس.

— وتلك وما إليها محاولات علمية — فيما يزعم محاولوها — لكن العلم الصحيح يأبى الاعتراف بها. ويرفض البحث البرىء أن يؤيدها، فلا تثبت على درس، ولا تبقى على الأيام. ولا تقوم عليها عقيدة أصيلة أو راسخة.

* * *

وتكون الفنون على اختلاف صورها وسائل فى إذكاء هذه العزة النفسية، فتهتف الأناشيد الشاعرة بأمة أنها فوق الجميع. وقبل الجميع.. وتنبعث الأنغام المدوية. تدعو أمة إلى السيادة والتحكم.. الى غير ذلك من محاولات فنية متعددة، مكررة، بل ملحة تثير من الشعور بالعزة ما تثير.. لكنها — على كل حال — ليست أصيلة عميقة، ولا بالغة مبلغ العقيدة المؤمنة، ولا باقية بقاءها.. ولا دافعة دفعها.. ولا مسعفة عند الأزمات إسعافها.

ولم يفت بعض الشعوب القديمة أن تثير هذا الشعور بالعزة النفسية؛ إثارة دينية اعتقادية، قلبية، روحانية، عن طريق ادعاء أن لها من الفضل

ما آترها الله به .. كأن تزعم أنها شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه . وهو ما لا يقبله العدل الإلهى ، والرحمة الربانية ، والسنة الدينية ، كما يقول القرآن ، واصفاً هذه الدعوة ، مناقشاً إياها :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ :
المائدة / ١٨

* * *

وهكذا رأينا كيف حرص أولو الوعى على إذكاء الشعور بالعزة ، واتخذوا لذلك من أسباب العلم ، والفن ، وادعاء الدين ، من المزاعم ما لم يصلح للبقاء . بل أثار التعصب الخاطىء ، وأهاج الحقد الساخط ، وأيد الطغيان الغاشم ، فسبب للإنسانية من الأهوال ما سبب . فلندع ذلك كله ، لنرى شيئاً من هدى القرآن عن تلك العزة النفسية .. فسنجد من ذلك : أنه يقدر هذا الشعور الكريم فى حياة الأمم تقديراً حيوياً سليما ، ويحرص عليه الحرص الشديد ، ويبعثه فى نفوس أمة القرآن بعثاً قويا . لكنه بارىء من الخطل ، والهوى ، والادعاء ، والافتعال ، وما إلى ذلك من أخطاء ، عانت الإنسانية منها ما عانت قديما وحديثا .

إن هذا القرآن يجعل هذه العزة النفسية صفة للمؤمنين ، حين يصف بها الله ورسوله ويقول :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وبهذا الصنيع يدفع الناس إلى الفهم الصحيح لتلك العزة ، والإدراك

السليم لهذا الشعور ، الذى يجعلها مع الله ، صفة للأخصاء من خلقه ، فإذا الذين تمثلوا روح التدين وذاقوا حلاوة الإيمان يقررون أن : ما يصور به الدين الإلـه المعبود. ومايعنته به ، من الصفات، ومايسميه به من الأسماء، فإنما كمال العبد المؤمن وسعادته ، فى التحلى بمعانى تلك الصفات والأسماء ، بقدر ما يتصور فى حق المؤمن . لحظ المؤمن ، حين تنكشف له صفات ربه انكشافا ، يجرى مجرى يقينه ، بصفاته هو الباطنة ، أن يستعظم ما ينكشف له من صفات الجلال فى مولاه . استعظاما يشوقه إلى الاتصاف بما يمكنه من تلك الصفات ، ولن يمتلىء القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة ، وحرص على التحلى بها[1] ولذلك انتهى القوم إلى أن يطلبوا من المتدين الحق التشبه بإلـهه فى لكمال ، والاتصاف بصفاته ، ما أمكنه ذلك .

وإذا كان هذا فيما لم يصرح فيه بوصف العبد نفسه به ، فكيف بما صرح القرآن بوصف العبد نفسه به مع الله ، فى مثل قوله :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ :

فكيف يكون التشبه بالله ، فيما وصف المتدين به . حين وصف به مع ربه ، فيما سمعنا من هذه الآية

وعلى هذا الأصل من تشبه المؤمن بربه ، واتصافه بصفاته ، قدر ما يمكنه ، يتصف بالعزة ، مع ما يذكره القرآن من الصفات الأخرى ، مصاحبا للعزة ، فى مواطن من الآى مختلفة متنوعة .

فأنت تسمعه يصف ربه بالعزة مع القوة والجبروت : هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . . الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

(١) الغزالى — المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى — ص ١٦ — ط السعادة — بمعناه مع اكثر لفظه .

ويصفه بالعزة مع العلم: ذَٰلِكَ تقدِيرُ العزِيزِ العلِيمِ . . ويثبت له العزة مع الحكمة : إنَّهُ هوَ العزِيزُ الحكِيمُ . . ومع الرحمة : تنزِيلَ العزِيزِ الرحِيمِ . . ومع المغفرة : هُوَ العزِيزُ الغفَّارُ . . وهُوَ العزِيزُ الغفُورُ

ويعرف المؤمن من أسماء الله : العزيز المعز ، فإذا أولئك المتشبهون بالمثل الأسمى يقررون : أن العزة هى الغلبة والقوة ؛ وهى حالة مانعة للإنسان من أن يغلب . . والعزيز هو الذى يَقهر ولا يُقهر . . وهو الخطير : الذى يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ؛ وما لم تجتمع له هذه المعانى الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز (١)

وكذلك ارتفعت نفوس المؤمنين والمؤمنات وعزت ، ولم يضرهم أن يكونوا من حطام الدنيا وأعراضها فى أى منزلة ؛ وحسبهم — كما قيل — أنهم على الإسلام ، وهو العز الذى لا ذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه (٢) بل كان منهم ما يشبه التيه والكبر ، فى ظاهر الأمر ، وما هو إلا عزة الإيمان ، قد تشبه الكبر من حيث الصورة ، لكنها تختلف عنه ، من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ؛ والكبر مذموم والعزة محمودة

ولما كانت العزة غير مذمومة مع شبهها بالكبر قالت الآية :

بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . الأحقاف — ٢٠

فقوله « بغير الحق » إشارة لاثبات العزة بالحق ، وكذلك كان صراط العزة منصوبا على متن نار الكبر ، كما يقولون ؛ وكان الوقوف على

---

(١) الغزالى — المقصد الاسنى ص ٣ .
(٢) الزمخشرى — الكشاف جـ ٢ ص ٤٦٢ ط بولاق — والفخر الرازى جـ ٨ ص ١٥١ .

حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوفا على صراط العزة هذا ، المنصوب على متن نار الكبر [١]

* * *

هاكم عزة الايمان تحرم الذل ، وتبرأ من الأذلاء ، وتدفع الى العمل الجليل ، فى سبيل الأمل النبيل . خالصة — كما رأينا — من الآفات السابقة التى لازمت الأساليب الأخرى فى الاعتزاز ، لأنها هنا عزة ، لاتقوم إلا على الروح العالية ، والعقيدة الواقية ، والنفس الصافية ، يغمرها اليقين بأن الله هو الأكبر ، فلا تخاف شيئا ما ، ولا ترهب شخصاما ، فالله أكبر من كل أولئك ، أكبر من كل كبير ، وكل كبير أمام كبريائه صغير .

وهذا الايمان متعة كل روح ، وعدة كل نفس ، لا امتياز فيه للون ، ولا فضل لدم ، ولا تفوق لعنصر ؛ ودعوة القرآن إليه عامة : لا تخص شعبا ، ولا تفرد قبيلا ، بحب الله أو بنوته .

ويا قوم — هذه العزة هى ملاك أمرنا . فى الكبير والصغير : يعز صاحب الأمر فلا يستسلم فى الميدان الدولى ويعز صاحب السيف ، فلا يجبن فى الميدان الحربى . . ويعز صاحب القلم فلا يخشى لومة لائم فى الميدان العقلى ، ويعز كل ذى شعور فيحترم نفوس قومه الأعزاء ، فى الميدان العملى ولن تقهر أمة آمنت بعزتها النفسية

وَلِلهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وللمؤمنينَ ؟

١٩٥٢/٤/٨

(١) الفخر الرازى — التفسير — جـ ٨ ص ١٥١ .

فهرس

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

مكتبة دراسات أدبية متكاملة
للمؤلف

---

١ ـ رسم المنهج

ـ **مناهج تجديد** ـ فى النحو . والبلاغة .. والتفسير .. والأدب .. ط دار المعرفة ٣٦٤ص

ب ـ تحقيق المنهج

ـ **مشكلات حياتنا اللغوية** نفد
ـ **فن القول** «
ـ **فى الأدب المصرى** : فكرة ومنهج «
ـ **رأى فى أبى العلاء** «
ـ **مالك بن أنس** : ترجمة محررة «
ـ **مالك** : تجارب حياة ـ فى سلسلة أعلام العرب
ـ **الجندية والسلم** : واقع ومثال ـ ط دار المعرفة

من هدى القرآن :

القادة .. الرسل ـ	ط. دار المعرفة
فى رمضان	ط دار المعرفة
فى حكومة القرآن	تحت الطبع
فى الفن	تحت الطبع

ـ تجديد الدين ـ قوميتنا وأسسها ـ الاسلام بعقل اليوم ولسان اليوم ـ روح التاريخ : من الدين .. والفن والاجتماع ـ تحت الطبع

الثمن ١٥ قرشا

دار الهنا للطباعة : ٧١٣٢٧